

مشرحة بغداد

رواية

برهان شاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

2 -879-421-614-978 ISBN
الطبعة الأولى
1433 هـ ـ 2012 م

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد ، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب : 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http:// www.asp.com.lb

.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ ... يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}

القرآن الكريم - سورة مريم (23)

رأيتُ كلَّ الأعمال التي عُملت تحت الشمس

فإذا الكل باطل وقبض ريح

الإصحاح الأول - سفر الجامعة

(1)

الذبح بسكين المطبخ في البانيو

الساعة الآن قد تجاوزت منتصف الليل. مشرحة بغداد قد أوصدت أبوابها. ليس هناك سوى الطبيب الخفر ومساعده والحارس الخفير. المنطقة التي فيها المشرحة، والشوارع المؤدية إليها، والأزقة التي تحيطها، بل وبغداد كلها غارقة في الظلام.

في هذه الليلة المظلمة التي اختفى من سمائها القمر، قام الحارس آدم، قبل أن يؤوي إلى غرفته، بجولته الليلية، فتأكد من الأبواب المقفلة في الطابقين الأرضي والأول حيث غرف الموظفين الإداريين وبقية الأطباء والممرضين المساعدين، وتأكد من أن الطبيب الخفر والممرض المساعد قد ناما.

الخفير آدم كان على غير عادته الليلة، فثمة هاجس خفي يدفعه لإنهاء جولته الليلية الاعتيادية، والتوجه إلى غرفته في الطابق تحت الأرضي، لمشاهدة الأقراص المدمجة التي اشتراها نهاراً من الباب الشرقي وسط بغداد. الطابق تحت الأرضي ليس طابقاً للاستخدام الوظيفي والإداري، فهو يتألف من ممرات طويلة متقاطعة وفارغة. في أحد هذه الممرات توجد غرفة الحارس آدم، وفي الممر نفسه تقع قاعة التشريح، القاعة الكبيرة التي تحفظ فيها الجثث الجديدة من أجل تشريحها. في الممرات الأخرى توجد الثلاجات التي تحفظ فيها الجثث المجهولة، أو التي تلزم الجهات الحكومية لأغراض التحقيق.

نهار هذا اليوم أقنعه البائع الذي يزوّده بالأفلام الجديدة، الأفلام الأجنبية، والأفلام الجنسية، أن يشاهد فيلماً تسجيلياً عن عملية ذبح حقيقية وجد في بيت نائب إثر مداهمة قوات الشرطة له. الفيلم المصور تمّ تسريبه مستنسخاً على قرص (دي في دي) من قبل بعض الشخصيات الحكومية المتصارعة.

الحارس الخفير آدم يشعر بقلق خفيّ. لأول مرة يشعر بأنه يريد أن يشاهد فيلم الذبح قبل الفيلم الجنسي. كان كلّما ذهب لشراء أفلام جديدة، والتي غالباً ما تكون أفلاماً هندية، تاريخية، أو أفلام رعب، يزوّده البائع بما لديه من أفلام جنسية. وعندما يخلو إلى نفسه فإنه يبدأ بالأفلام الجنسية، وبعد ذلك يشاهد أياً من الأفلام الجديدة.

لا يدري لماذا هو قلق الليلة، ولماذا يريد مشاهدة هذا القرص التسجيلي الواقعي قبل الفيلم الجنسي؟ هناك رغبة داخلية مشوبة بخوف خفي

وأسئلة غامضة لم تتضح في أعماقه تدفعه لمشاهدة ذلك القرص.
عندما هبط الحارس آدم إلى الطابق تحت الأرضي أحسَّ برهبة وهو ينظر إلى الممرات الخالية والمتقاطعة، تذكّر أول أيام عمله كحارس في المشرحة. استعجل خطوه نحو غرفته وكأن هناك من يطارده، وارتبك وهو يفتح باب غرفته بالمفتاح.
دخل غرفته وضغط على زر التيار الكهربائي. اتضحت ملامح الغرفة الصغيرة التي منحت له للمنام والمعيشة. جلس على الصوفة الجلدية التي يستخدمها كسرير للنوم أيضاً، ثم ضغط على الريموت كونترول فأضاء جهاز تشغيل أقراص الـ (دي في دي) كما بدأت الشاشة الزرقاء تشير إلى اختيار البث التلفزيوني أو القرص المدمج، فضغط آدم باتجاه القرص المدمج.
كانت أصابعه ترتعش، وهو يضع القرص المدمج الذي يسجل وقائع عملية ذبح حقيقية في موضعه من جهاز التشغيل. ضغط على إشارة السهم التي تعني التشغيل فبدأت الصورة تظهر على الشاشة.
كان التصوير قد تمّ بكاميرا فيديو عادية ومن قبل شخص غير متخصص، فهي تتحرك كثيراً وتتنقل بشكل عشوائي في المكان، لكن برغم ذلك فالأمر برمته ليس فيلماً سينمائياً وإنما توثيق لعملية ذبح إنسان.
في الصورة يبدو وجه فتى في الثامنة عشرة أو أكثر بقليل. الوجه مذعور والنظرات قلِقة، لكن الفتى يحاول أن يبدو طبيعياً. ظهر على الشاشة أربعة أشخاص إلى جانب المصور، اثنان يجلسان على جهة، بينما في الجهة الأخرى ثالث يقف وفي يده سكين مطبخ كبيرة، وخلفه شاب آخر. الجميع لا يتجاوزون الثلاثين من العمر باستثناء الفتى المذعور.
الفتى المذعور يجلس في وسط الغرفة بملابسه الرثة وملامحه البسيطة والتي تشير إلى أنه ينتمي للمناطق الشعبية الفقيرة في العاصمة بغداد. الآخرون كانوا يرتدون بنطلونات جينز وفانيلات خفيفة متفاوتة الألوان.
- ما اسمك؟
- هادي.
- كم عمرك؟
- لا أعرف كم عمري.
تتعالى ضحكاتهم.
- كيف لا تعرف كم عمرك؟
- والله العظيم لا أعرف كم هو عمري.
- أمن المعقول أن لا تعرف كم هو عمرك؟

فقال الفتى بنبرة منكسرة وكأنه يتوسل أن يصدقوه:
- والله العظيم، والأنبياء، لا أعرف كم هو عمري بالضبط.
- زين، في أي صف أنت؟
- أنا تركت المدرسة حينما كنت في الصف الخامس الابتدائي.
كان الفتى مطيعاً ويحاول الإجابة بكل عفوية عسى أن يكسب ثقتهم كي يعفوا عنه ويطلقوا سراحه.
- يعني أنت تقرأ وتكتب؟
- أقرأ.
- وماذا تفعل في منطقتنا؟
- أنا كاسب، أجمع بقايا أكياس الإسمنت من أماكن البناء لتصنع أمي منها أكياساً صغيرة لبائعي الخضراوات، ونعيش من بيعها.
- أنت تكذب.
صرخ فيه أحد الشبان الجالسين، وشتمه آخر:
- ابن النعال.. تكذب علينا؟ أنت جئت متجسساً لجيش المهدي.
- والله أنا لا أكذب.. ولا أعرف جيش المهدي.
من الخلف رفسه أحد الواقفين، وشدَّ الذي يمسك بيده سكيناً شعره بقوة مقرباً السكين من عنقه وهو يقول له مهدداً:
- إذا لم تقل لنا من أنت، وماذا تفعل في منطقتنا، ولمن تتجسس، سنذبحك، وإذا تعاونت معنا سنطلق سراحك، أفهمت؟
- فهمت..
- قل لنا إذاً لِمَ أتيت لمنطقتنا؟
- والله العظيم، كما قلت لكم، أتيت لجمع الأكياس التي يحفظ فيها الإسمنت.
- ولماذا أتيت لمنطقتنا، ألا توجد مناطق أخرى؟
- توجد.. نحن نعيش من وراء صناعة الأكياس منذ سنوات؟ أنا أدور في المناطق الغنية التي فيها بناء وعمران، لأنه إذا كان هناك بناء يعني وجود أكياس الإسمنت، وقد وجدت في منطقتكم أكثر من بيت يتم بناؤه، لهذا أنا في منطقتكم.
- لكنك لست وحدك. أحياناً تأتي معك امرأة.
- إنها أمي، تأتي معي أحياناً لنجمع أكبر عدد ممكن من أكياس الإسمنت.
فقال أحدهم ساخراً:
- هذا يعني أن أمك أيضاً تتجسس لجيش المهدي.

- والله لا نعرف جيش المهدي.
فرفسه الشاب الآخر، الذي يقف إلى جانب حامل السكين، على مؤخرته وظهره وهو يصرخ فيه:
- حقير.. اعترف.
- أعترف بأي شيء وعن أي شيء؟
فقال له أحد الجالسين وهو يبتسم:
- اعترف أنك من جيش المهدي وأنك كنت تتجسس علينا وسنطلق سراحك.
صمت الفتى المذعور لحظة، ثم قال:
- يعني إذا اعترفت تطلقون سراحي؟
- طبعاً نطلق سراحك.
- زين.. ماذا عليّ أن اعترف.. ماذا أقول؟
- قل إنك من جيش المهدي.
- لكني لست من جيش المهدي ولا أعرفه.
فقال له حامل السكين وهو يضربه على مؤخرة رأسه:
- يعني أنت لا تريد أن تخرج سالماً من هنا؟
- أريد، لكنكم تريدونني أن أعترف وأقول إني من جيش المهدي، وأنا لستُ كذلك.
- إذن، أنت لا تريد أن تخرج سالماً من هنا.
- يعني لو كذبت وقلت إني من جيش المهدي ستطلقون سراحي؟
- نعم.
- زين.. قولوا لي ماذا عليّ أن أقول وسأقوله لكم.
- قل إنك من جيش المهدي.
- أ.. أ.. أنا من.. جيش.. المهدي.
- وأنت جئت لتتجسس علينا.
- وأنا جئت لأتجسس عليكم... بس والله ما جئت لأتجسس عليكم.
نظر حامل السكين إلى الجالسين. هكذا كانت الكاميرا تصور وجهه وهو يقول:
- الآن حصلنا على اعترافه بأنه من جيش المهدي وأنه يتجسس علينا، هذا يعني حلَّ عليه القصاص.
سُمع الصوتُ قبل أن تنتقل الكاميرا إلى وجه الشاب الجالس، الذي قال:
- على بركة الله.. حلَّ عليه القصاص.
كشفت الكاميرا، برغم بدائية التصوير، عن تسجيلٍ وافٍ للحدث وللمكان.

اقترب اثنان من الموجودين وأخذا الشاب المذعور من ذراعيه، وسحلاه إلى غرفة الحمام، وأجبراه على الجلوس على ركبتيه عند حافة الحوض (البانيو)، وظلا ممسكين بذراعيه، بينما اقترب حامل السكين ليتوسطهما.

كان الفتى مذعوراً مثل نعجة تعرف أنها ستُذبح. كان مستسلماً ببرودة، وفي أعماق عينيه رعب إنساني وكثافة من التوسل، وكأنه كان يأمل أن يُعفى عنه، برغم أنهم كانوا يتهيأون لذبحه.

انتقلت الكاميرا إلى وجه حامل السكين الذي كان يبتسم ويقول:

- على بركة الله.

في هذه الأثناء ضغط الاثنان على الفتى المذعور باتجاه حافة الحوض، بينما كان هو يبدي مقاومة لاإرادية. في تلك اللحظة أمسك حامل السكين بخصلة شعر أمامية ساحباً رأس الفتى المذعور إلى الأعلى بقوة، بينما مرَّ نصل سكينه الكبيرة على عنقه، ذابحاً إياه. نفر الدم بقوة ملوثاً الحائط.

كان الفتى الذبيح يرفس برجليه ويهزّ كتفيه المقبوض عليهما بقوة وثبات، بينما الدم ينفر من عنقه بغزارة ليملأ الحوض. لم يكتفِ حامل السكين بذلك، إذ أخذ يقطع العنق بعمق.

كان الفتى الذبيح يحرك كتفيه، لكن جذوة الحياة أخذت تهمد في جسده. كان الدم ينفر منه، بينما نقلت الكاميرا صوت تنفسه عبر حنجرته المقطوعة مثل تنفس البقرة الذبيحة وهي تودع آخر نفس وتتذوق آخر طعم للهواء.

بعد أن أطلق الذبيح آخر أنفاسه تركه الشابان منحنياً بجذعه الأعلى على حافة الحوض، بينما تدلت رأسه المقطوعة مرتبطة بشيء قليل من الجلد ببقية جسده.

أخذت الكاميرا تتنقل بشكل عشوائي حيث صورت حامل السكين وهو يمسح نصل سكينه بقميص الضحية، وهو يبتسم، كما سجلت أصوات مرحة غير واضحة. انتقلت الكاميرا لتصوير سقف الغرفة ثم انقطع البث.

شعر الحارس آدم بالرعب. أحسّ ببلل بين فخذيه، فعرف أنه قد بلّل سرواله قليلاً دون أن يدري. نهض مرعوباً وبشكل لاإرادي فأغلق الباب بالمفتاح، ثم عاد جالساً على الصوفة الجلدية ساكناً كالتمثال.

فكّر لثوانٍ باللحظة التي مسَّ نصل السكين عنق الضحية، والثواني الأولى من عملية الذبح حينما شقّ النصل عنق الفتى وشعور الفتى في تلك اللحظات، لا سيما وأنه لم يمت مباشرة، وإنما استغرق موته دقائق إلى أن نزف دمه.

صحيح أنه يعمل في مشرحة، وأنه رأى عشرات الجثث المشوهة. جثث مقطوعة الرؤوس. جثث مقطوعة الأطراف. جثث بعيون فُقئت أو قلعت من محاجرها. جثث بجماجم مهشمة بالمطارق أو مثقوبة الجماجم بأزاميل حادة. جثث مقطوعة اللسان. جثث مقطوعة الآذان. جثث محروقة. جثث تمّ تعذيبها ومن ثم أُعدمت. جثث تالفة قد انتشلت من الأنهار. بقايا أجساد بشرية لملمت من أماكن انفجار السيارات المفخخة أو الانتحاريين الإسلاميين. جثث يراها يومياً في القاعة الكبيرة، لكنه لم يرَ عملية قتل، بل ذبح إنسان حي قط.

لا يدري كم من الوقت مرَّ عليه وهو في جلسته الجامدة تلك. شعر برغبة في التكور على نفسه. استلقى على الصوفة الجلدية مادًّا اللحاف الذي كان عند طرفها على جسده، لكنه ترك المصباح مضاءً. كان يشعر بالبرد. غطّى رأسه باللحاف وأجبر نفسه على النوم. كان يرتجف لاإرادياً. بقي للحظات متمدداً على ذلك الوضع، لكنه قام فجأة فأطفأ النور الكهربائي وعاد إلى الصوفة مستلقياً بعد أن غطّى جسده ورأسه باللحاف ثانية.

تقلّب في نومه كثيراً. استيقظ أكثر من مرة. فتح عينيه وحدق إلى سقف الغرفة المظلمة. استذكر لحظة الذبح وما تلاها فقط. حاول العودة إلى النوم. ظل فترة لا يفكر في شيء سوى النوم. لا يدري كيف سقط في هاوية النوم.

(2)

الآخرون

على الرغم من أن الحارس آدم يبلغ الثانية والعشرين من العمر، إلا أنه يبدو للناظر أكبر من ذلك بسنوات، وبالرغم من أن ملامحه عادية إلا أن شخصيته كانت ملفتة للنظر، لا سيما العينين الواسعتين والنظرة المتّقدة. كان شاحب الوجه، ناحل الجسد، كثّ الشعر، طويل القامة. لم يكن يهتم بمظهره الخارجي. يلبسُ دائماً بنطلوناً أسودَ وقميصاً أحمرَ، يرتدي فوقهما قميصاً طويلاً أزرق اللون يصل إلى ركبتيه ليميزه بأنه ينتسب إلى المكان الذي يعمل ويسكن فيه، لكنه برغم بساطة هندامه يبدو أنيقاً.

كانت تنبعث منه دائماً رائحة كريهة، نتنة، رائحة الجثث المتفسخة، ورائحة الأدوية المعقمة، التي ربما علقت بثيابه من خلال عمله في المشرحة التي يقضي فيها معظم وقته، ومن خلال استخدامه المعقمات باستمرار. بالرغم من أن هذه الرائحة لم تلتصق به إلا منذ أشهر.

صحيح أن رائحة المواد المعقمة كانت تفوح منه منذ بداية عمله في المشرحة، لكن رائحة الجثث المتفسخة لم تلتصق به إلا منذ أشهر ستة تقريباً. ضايقه الأمر في البداية، لكنه نسي ذلك، وألفه، لأن كل العاملين في المشرحة تنبعث منهم هذه الرائحة، رائحة الجثث المتفسخة والمواد المعقمة.

كان يبدو دائماًً مشغول الذهن، صموتاً، لا يتحدث مع أحد بتاتاً، إلا إذا سُئل، وحتى حينها كان يجيب باقتضاب شديد، بل كان يبدو وكأن الإجابة تعذّبه أو أن السائل يضطهده بالسؤال، مما يدفع السائل إلى الشعور بالشفقة وربما بالذنب.

لم يواصل آدم دراسته، فقد انقطع عن الدراسة وهو في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، بعد أن توفي والده وبقي وحيداً مع أمه. اضطر للتنقل بين حِرف ومهن مختلفة، عاملاً في البناء، عاملاً في مطعم، ساقياً في بار، حارساً في بناية، وأخيراً وجد قريب لأبيه له وظيفة حارس المشرحة، التي كان هو حارساً لها، لكنه آثر الإحالة إلى التقاعد، إذ توسط لدى إدارة المشرحة لقبول آدم مكانه لا سيما وهو متعلم، وشاب في أوج قوته الجسدية، فوافقوا على تعينه حارساً للمشرحة بدلاً عنه.

ليس لدى الحارس آدم أي أخوة أو أخوات، فهو وحيد أمه التي هي بدورها وحيدة وكأنها شجرة في صحراء، مقطوعة وبلا جذور، وحتى هذا الرجل الذي وجد له هذه الوظيفة، فإنه يقرب لأبيه من بعيد، كان وحيد والديه أيضاً، اللذين كانا بدورهما وحيدين وبلا جذور. لقد كان الحارس

آدم ورقة مهملة سقطت من شجرة مجهولة، بلا جذور.
كان آدم يقرأ بنهم، يقرأ كل شيء، لكنه يتعمق في قراءة الكتب الفلسفية، والشعر المترجم، والكتب التي تهتم بعلم الجمال، وتاريخ الحضارات. تعمّقت هذه القراءات بعد أن انقطع عن الدراسة، وكأنه أراد بذلك أن يعوِّض عن عدم إكماله للدراسة، بل إنه تعلم اللغة الإنكليزية، وأجاد القراءة فيها، وكأنه بذلك أراد أن يعيد صياغة نفسه. لكن الدروب كلها كانت مسدودة في وجهه، إلا درب المشرحة التي فتحت له بوابتها الحديدية على آخرها.
كل شهر، وفي نهار أول جمعة بعد استلام الراتب، كان يذهب إلى شارع المتنبي ليشتري الروايات والكتب الفلسفية والدينية والمجلات الفنية المتخصصة بمتابعة المشاهير وخاصة الممثلين والممثلات، وهذا ما منحه لقب (الفيلسوف) بين موظفي وعمال المشرحة سواء من باب السخرية أو الاحترام. كان معظم الأطباء أثناء مناوبتهم الليلية في المشرحة يستعيرون منه المجلات الفنية طرداً للضجر لذا كانوا يجاملونه أيضاً ويمزحون معه. وعلى الرغم من أنه انقطع عن الذهاب إلى شارع المتنبي وساحة التحرير منذ أشهر، فإن غرفته مليئة بالكتب والمجلات وأقراص الأفلام المدمجة.
كان يحسّ بعزلة داخلية قوية وبشعور حاد بأنه وحيد ولا أحد يفهمه. يؤمن بأن عالم الإنسان الداخلي هو المهم، فهو الجوهر، وكل ما عدا ذلك ليس إلا القشور. العلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل بل وحتى العلاقة الزوجية ليست إلا القشرة التي تحيط بالوجود الإنساني، فالإنسان، كما كان يعتقد، وحيد في كل الأحوال، وإن إمكانية التواصل البشري هي محاولة يائسة، فالإنسان كائن مرعوب، وحيد، وأن المجتمع ليس إلا الدليل على محاولة الإنسان الفرد للهروب من الوحدة.
كان متقوقعاً على ذاته. يخاف الناس في أعماقه. يخاف كل الموظفين في المشرحة. يخاف الأطباء والإداريين. يخاف الجنود الأجانب، بالرغم من أنهم أكثر تهذيباً من بعض الجنود العراقيين الذين يمر بهم عند نقاط السيطرة التي يعبر منها أحياناً. كان يخاف نظرات السابلة في الشوارع. يحس نفسه أحياناً أنه قريب من القنفذ، الذي يتقوقع على ذاته.
الإنسان الوحيد الذي لا يخاف منه، من بين الأحياء، هو بائع الأقراص المدمجة الذي يشتري منه الأفلام. أما الموتى، جثث الموتى، فهم الأصدقاء الذين لا يخافهم بل ويتعاطف معه، ويحترمهم لأنهم عبروا حاجز الحياة ودخلوا في المنطقة الأخرى حيث لا شعور بالألم، بل كان يحسّ بالإشفاق على أهلهم الذين يراهم يتوافدون على المشرحة عند وصول جثة ما

متباكين أو نائحين. يشفق عليهم لأنهم لا يدركون بأن أحبتهم تجاوزوا المعاناة والألم في هذه الدنيا، ويشفق عليهم أيضاً لأنه يرى عمق الألم والفقدان الذي يعانيه هؤلاء الأهل.

أحياناً، بعد منتصف الليل كان ينسل من غرفته، كالقنفذ، ليدخل إلى قاعة التشريح فيتأمل الجثث بلا خوف أو رهبة، مهما كانت بشاعة المنظر، من حيث إن الكثير من الجثث تأتي مشوهة أو ناقصة. قليلة جداً تلك الجثث التي تبدو كاملة لأن أصحابها إما ماتوا في المستشفى أو لأسباب صحية في بيوتهم.

كانت تتشكل لديه علاقات خاصة مع بعض الجثث، فحينما يأتون بجثة ما ويشعر بإحساس التعاطف معها فإنه يتتبع وضعها لحين إخراجها من المشرحة، بل ويعتني بها أيضاً، حيث يذهب إلى قاعة المشرحة أو قاعة الثلاجات ليراها أو ليغطيها أو يعدل من وضعها.

كان يشعر بالحب تجاه بعض جثث النساء الشابات. مرة أحبَّ جثة فتاة قروية في الثامنة عشرة من العمر، ماتت نتيجة تلقيها طعنة في القلب من أخيها الذي يصغرها بسنتين في العمر، لأن أهلها شكّوا بحملها، فقد انقطعت عنها الدورة الشهرية لثلاثة أشهر متتالية وانتفخت بطنها قليلاً، فشكَّ الأهل فيها، بالرغم من أنها أكدت لهم بأنها لم تقترب من أي شخص. طبعاً، في ما بعد، اكتشف الأطباء الشرعيون بأنها فعلاً عذراء، وانتفاخ بطنها ليس ناتجاً عن حمل وإنما لاضطرابات في الرحم والتهاب في المبيضين سبب تجمع دماء نزول العادة داخلها مما أدّى لانتفاخ بطنها.

عشق الحارس آدم تلك الفتاة، أو جثمان الفتاة، عشقاً قوياً مليئاً بالحنان والشفقة، عشقاً حقيقياً كما كان يقول لنفسه، لأنه كان يعتقد بأن الناس الأحياء حينما يحبون بعضهم بعضاً فإنهم بذلك يحبون ذاتهم في الآخر، وينتظرون المتعة منه ومعه، بينما حبه لجثمان الفتاة الميتة هو حب حقيقي لأنه لا ينتظر منها أي شيء، فالحب الحقيقي هو الحب المليء بالتعاطف والشفقة قبل الرغبات وانتظار المتع والمبالغة في تقدير الذات من خلال الآخر.

في البداية رأى بعض أهلها، أمها وأختها ورجلاً ملثماً آخر جاء معهم، شعر برقة الكائن المغطى بإزار صوفي أحمر من خلال صغر حجم الجثة. لم يكن يعرف أنها جثة أنثى إلا عندما صاح فيه مساعد الطبيب بأن يحمل السرير المتحرك لنقل الجثمان، ووضعوا الجثة عليها انكشف الإزار عن وجهها وعن خصلاتها الذهبية، فأُصيب بالذهول.

كان أهل الفتاة قد جاءوا بجثمانها عصراً قبل نهاية الدوام بقليل. وبالتالي كان عليهم انتظار الأطباء إلى اليوم التالي كي يقوموا بتشريح الجثمان وتقديم التقرير الطبي حول سبب الوفاة، لذا فقد أخذ الجثة إلى قاعة التشريح يرافقه مساعد الطبيب، وهناك تركا الجثة على النقالة وخرجا، لكنه ظل مسكوناً برغبة عارمة في أن يذهب لرؤية الفتاة، ولتأمل وجهها الجميل والبريء والحزين الذي رآه حين نقلا الجثة من السيارة إلى السرير النقال.
حين صعد إلى الطابق الأرضي وجد أن أم الفتاة كانت تبكي بحرقة بينما كانت المرأة الأخرى تحاول أن تهوّن عليها بالرغم من أنها كانت تبكي أيضاً، بينما ظل الرجل الملثم حزيناً وغاضباً في الوقت نفسه. كان واضحاً أنهم قد علموا من إدارة المشرحة بأن عليهم العودة في اليوم التالي لأن الدوام قد انتهى ولا يوجد طبيب أصلاً.
عاد الحارس آدم إلى غرفته في الطابق الأسفل حيث قاعة الجثث. عمل لنفسه الشاي، ولكنه لم يشرب منه، لا يدري لماذا، فمنذ أشهر انقطعت رغبته بالأكل والشرب، فكان يعدّ الطعام لكنه لا يأكل منه شيئاً، ويعدّ الشاي ولا يشرب.
خرج من غرفته. اتجه إلى قاعة الجثث. دخل مقترباً من جثة الفتاة الممددة على النقالة. أزاح الغطاء عن وجهها وظل واقفاً يتأمله.
راودته حينها مشاعر متضاربة. كان وجه الفتاة يبدو وكأنها نائمة. ثم ببطء أزاح الغطاء عن كامل جسدها، فرأى جرحاً بليغاً في صدرها ناحية القلب، وشيئاً من الانتفاخ أسفل بطنها وكأنها حامل، بينما انزاح ثوبها ملتفاً إلى الأعلى كاشفاً عن فخذيها الملساوين المتناسقتين. ظل للحظات يتأمل جسدها ثم أعاد الغطاء عليه. غطى وجهها أيضاً، لكنه حينما همَّ بالخروج وقف فجأة ثم رجع ليرفع الغطاء عن وجهها فقط كاشفاً إياه لسقف الغرفة.
في تلك الليلة شاهد الحارس آدم فيلماً أجنبياً اسمه (الآخرون) عن بيت تسكنه عائلة، أم مع طفليها وخادمتها الخرساء ومدبرة المنزل والبستاني، حيث تكتشف الأم بأن هناك أرواحاً تسكن المنزل الكبير الذي يقع وسط غابة بعيدة، ويتضح في ما بعد أن الأم وطفليها والخدم جميعهم هم الأموات، وأن الذين كانت تعتقد الأم بأنهم الأرواح التي سكنت البيت ليسوا سوى سكانها الأحياء. لقد أعجبه الفيلم كثيراً، لا سيما وهو يحب الممثلة (نيكول كيدمان) التي تؤدّي دور الأم في الفيلم. والغريب أنها ذكّرته بوجه الفتاة القتيلة لحدٍّ ما. فكّر للحظة مع نفسه: هل نحن أموات وهذه هي أرواحنا تعيش، مثل أبطال الفيلم، أم نحن أحياء فعلاً؟

استلقى الحارس آدم على الصوفة، وأطفأ المصباح الكهربائي فغرقت الغرفة في الظلام. ظل فاتحاً عينيه، محدقاً إلى سقف الغرفة برغم الظلمة. فجأة سمع صوتاً وكأنه صوت سرير نقال يتحرك. لم يعر الأمر اهتماماً فاستغرق في تحديقه إلى سقف الغرفة عسى أن يأتيه النوم.

مرّت لحظات ثم سمع وقع خطوات في الممر تتجه نحو غرفته. أحسّ بشيء من الخوف. مَن تراه يمشي في الممر في مثل هذه الساعة؟ فكّر مع نفسه في أن هذا الصوت غير حقيقي فهو يتخيله ربما بتأثير الفيلم الذي شاهده قبل أن ينام. لا. لا. الأصوات حقيقية وبدأت تعلو شيئاً فشيئاً، لكنها تتوقف قليلاً ثم تستمر بالمشي لخطوات، تقترب باتجاهه.

مع اقتراب الخطوات باتجاه غرفته بدأ الحارس آدم يحسّ بالبرد يسري في جسده، فالتفّ بالبطانية. فجأة انتبه إلى أن الخطوات وصلت إلى باب غرفته، ثم توقفت فجأة. شعر بالخوف، وبقشعريرة تهزّ جسده فغطى رأسه بالبطانية.

رفع البطانية عن عينيه وأخذ يحدق إلى مقبض الباب. أحسّ برغم الظلام بأن مقبض الباب قد تحرك دون أن يطلق صوتاً، لكن عاد إلى وضعه الطبيعي. أحسّ أن هناك من يقف عند الباب ويهمّ بالدخول لكنه لم يدخل. مَن تراه؟ ولماذا توقف عند الباب ولم يدخل؟ وإذا كان من العاملين في المشرحة فلماذا لم ينادِه كي يفتح له؟

بدأت الخطوات تنسحب من عند الباب وتختفي شيئاً فشيئاً في الممر، لكن الذي انتبه إليه الحارس آدم أن الخطوات جاءت من جهة قاعة الجثث واتجهت مبتعدة نحو الاتجاه ذاته.

في صباح اليوم الثاني سمع طرقاً على الباب فعرف أنها أصوات احتكاك مكنسة المنظف الأخرس الذي يقوم بالتنظيف نهاراً. انتبه إلى أنه قد تأخر في نومه قليلاً، فعادة هو يستيقظ قبل هذا الوقت.

أول ما طرأ على ذهنه هو الذهاب إلى قاعة الجثث، إذ أحسّ برغبة شديدة في رؤية الفتاة القتيلة. حين خرج من غرفته رأى المنظف الأخرس في أقصى الممر. اتجه إلى القاعة بخطوات حذرة، فهو يعرف أن الطبيب ومساعده ربما هما الآن في القاعة. في الطريق إلى القاعة تذكّر الأصوات التي سمعها ليلاً في الممر. لم يستطع أن يحسم الأمر مع نفسه إن كان ما سمعه مجرد وهم أم كانت أصوات حقيقية.

حينما دلف الحارس آدم إلى قاعة الجثث رأى الطبيب الشرعي ومساعده يقفان عند جثة الفتاة التي كانت عارية بالكامل. كانا قد أنجزا عملية

التشريح، وقاما بخياطة الجثة من المناطق التي تمّ فتحها فيها. كما انتبه إلى أن أسفل بطنها زال عنه الانتفاخ.
ما أن رآه الطبيب الشرعي حتى طلب منه أن يساعد في نقل الجثة إلى السرير النقال، فتقدم دون أن ينطق بشيء وحمل الجثة من جزئها الأعلى بينما رفع المساعد الجزء الأسفل ووضعاها على السرير النقال.
لم يستطع آدم أن لا ينظر إلى ذلك الجسد المتناسق الجميل وإلى المنطقة السفلى من بطنها، وبالتحديد بين فخذيها، بينما سمع الطبيب يقول:
- الله وحده يعلم، كم توسلت لهم مؤكدة على براءتها ولم يسمعها أحد. على أية حال. تعالَ معي بسرعة كي ننجز التقرير، ولنخبر أهلها بأن ابنتهم كانت عذراء، وهي بريئة، ولم تكن حاملاً. تعالَ.. تعالَ معي، ولنترك آدم ينظف الأرضية من الدماء.
خرج الطبيب يتبعه مساعده، بينما بقيَ الحارس آدم مشغولاً مع نفسه، تغمره الراحة لخروجهما.
في تلك اللحظة التي اختفى فيها الطبيب ومساعده من القاعة، نظر الحارس آدم إلى وجه الجثة متأملاً. ظل يحدق للحظات. فجأة فتحت الجثة عينيها برعب ونظرت إلى وجهه، ثم مسكته من ياقة قميصه ساحبة إياه إليها.
شلّه الرعب ودفع يديها عن ياقة قميصه وهرول هارباً من القاعة، ملتفتاً إلى الوراء وهو يركض باتجاه الطابق الأرضي، فرأى الفتاة تقف عند باب قاعة الجثث عارية وهي تبتسم.
كان الحارس آدم يركض بأقصى سرعته، لكنه كان يحسّ وكأنه يراوح في مكانه. وهو في تلك الحال كان يفكر بما جرى، وما يجري، هل هو يتوهم ما يجري معه أم أن الأمر هو مجرد كابوس لا أكثر؟ وليتأكد من ذلك كان يتلفت إلى الوراء، لكن لا، الجثة تقف هناك عند باب القاعة وآثار خياطة فتح البطن ترسم خطاً مشوهاً على صدرها وبطنها.
عندما وصل إلى الدرج لم يستطع صعوده، تعثر. أخذ يقفز على يديه ورجليه صعوداً. عندما وصل إلى الطابق الأرضي رأى أهل الفتاة. كانت الأم تنوح وتلطم وجهها بينما الأخت تزغرد لبراءة أختها من العار الذي لحق بهم، أما الرجل الملثم فقد بدا مرتاحاً برغم بعض ملامح الحزن والانكسار في نظراته.
مرَّ المنظف الأخرس من أمام فتحة الدرج فرأى الحارس آدم وهو يجثو على درجات السلم وكأنه قد تعثر، فأشار إليه بيديه مستفسراً. نظر الحارس

آدم إليه ولم يجبه وحرك يده دونما أي كلام وكأنه يقول له أغرب عني، لكنه ظل يتلفت إلى أسفل الدرج وكأنه يتأكد من أن الجثة لن تتبعه.
بالرغم من مرور أكثر من سنة على ما جرى فإن الحارس آدم لا يدري، لحد الآن، بالضبط هل ما رآه كان حقيقة أم وهماً؟

(3)

تأملات من قاعة التشريح

ما حدث له مع الفتاة القروية كان بعد شهرين من تعيينه حارساً للمشرحة. لقد مرَّ الآن على وجوده فيها سنة وثلاثة أشهر تقريباً. تعوّد خلال هذا الوقت على رؤية أهالي الميتين في مختلف تجلياتهم للتعبير عن حزنهم.

تعرّف على طريقة الأطباء ومساعديهم في التعامل مع جثث الموتى سواء أثناء عملية التشريح أم بعدها، وكيف أن بعض المساعدين يتاجرون بأعضاء الموتى، أحياناً، مستقطعين إياها من الجثث، خاصة لبعض النساء اللواتي يمارسن السحر، بل وكيف كانوا يتعاملون مع الجثث بلا أي اعتبار، فهي بالنسبة لهم جثث، كتل من اللحم، حالها حال جثث الأغنام، يقطعونها بلا أي شعور أو إحساس خاص بالتعاطف الإنساني، بل أحياناً بنوع من القسوة مثل أي قصاب في السوق، فإذا ما لاقى صعوبة في تشريح جزء أو فتح عضلة فإنه يأخذ الساطور ليهوي على ذلك الجزء مهشماً إياه أو مقطعاً أو هارساً له.

في المرة الأولى التي رأى فيه عملية التشريح شعر برعب حقيقي، وبغثيان، ومنذ ذلك الوقت قرر أن لا يأكل اللحم. إن نظرته للحياة وللبشر، وفهمه وتقويمه لها، تأثر بمشاهداته للجثث يومياً، ورؤيته لعملية تشريح الأجساد البشرية، لا سيما لجثث بعض الشخصيات التي كانت تحتل في الحياة مواقع سياسية أو مناصب حكومية، ثم يراها ملقاة على السرير النقال لا حول لها ولا قوة، بل هي مجرد كتلة من اللحم.

ومن كثرة رؤيته للجثث ولعمليات التشريح، صار إذا رأى شخصاً، أياً كان ذلك الشخص، فإنه يراه بعين خياله عارياً على السرير النقال، أو إنه على مصطبة التشريح، أو إنهم قد فتحوا بطنه، أو إنهم يفتحون جمجمته بالماكينة الكهربائية التي تستخدم لقص الحديد أو الخشب ذات القرص المسنن، بعد أن يكون مساعد الطبيب قد رسم خطاً على الجبين يحدد فيه حدود تمرير السكين الحاد لقص جلدة الرأس أولاً، ثم لنزع جلدة الرأس بكل شعر الرأس الموجود، لتبرز الجمجمة بدون أيما جلد عليها، ثم يتم استخدام المنقاش الحديدي لفتح الجمجمة فيبرز الدماغ.

ما أكثر المرات التي شاهد فيها مساعد الطبيب وهو يكسر القفص الصدري بالساطور ليستخرج القلب والرئتين وبقية موجودات الصدر، وكيف تُشقّ البطون ويستخرج منها كل الأحشاء الموجود هناك.

دمرّت هذه المهنة حياة آدم. ليس بالمعنى المادي، فهي على العكس ضمنت له راتباً شهرياً ومأوى جيداً، لكن حياته دُمِّرت من جانب آخر، إذ لم يعد يرى في الناس سوى كتل لحم بشعة، وجيف تمشي، وأحشاء مليئة بالبراز والفضلات النتنة.
ما أن ينظر لرجل سمين، حتى تبرز في خياله طبقات الدهن المتراكمة، التي على مساعد الطبيب أن يسلخها مع الجلد عند فتح الجثة، وكذا الأمر حينما يرى رجلاً نحيلاً فإنه يفكر في سهولة شق بطنه وفتح القفص الصدري، كما يرى الأحشاء والأنسجة اللزجة التي تغطي البطن والصدر عن النساء، وكيف يتحول النهد الذي يتغنى به الشعراء ويثير شهوات الرجال إلى كتلة بشعة من مادة طرية لزجة، وكيف ينكمش النهد عند فتح الصدر ويتحول وكأنه قشرة تين مهروس.
لقد أخمدت مشاهداته رغبته القوية بمضاجعة النساء، فصار يكتفي بالاستمناء، بل صار يفلسف الاستمناء، ويعتبره أفضل حل لتلبية الرغبة الجنسية، فالأمر يتم وفق أجمل التخيلات مع أجمل النساء ومن خلال أجمل الأوضاع، دون أن تتعامل بشكل واقعي مع أجساد هو يعرف أنه لا يستطيع أن يرى فيها غير جثث باردة مفتوحة الصدر بطريقة كريهة ومهشمة الصدر مع وجوه منزوعة الجلد حيث لم يبقَ سوى الجمجمة. الاستمناء هو وسيلة الاكتفاء الذاتي، وأحد الحلول للخلاص من جحيم الآخر.
صار يهزأ مع نفسه من أغاني الحب، ومن الأشعار التي تؤكد على هموم القلب وعمق المحبة فيه، وهو يراه يومياً تقريباً، لا يعدو قطعة من اللحم المغطى في معظم الأحيان بطبقات من الشحم، والذي يشقه الطبيب أحياناً فلا يخرج منه سوى بعض الدم الأسود.
لقد قضت هذه المهنة على أحلامه، ورومانسيته وشاعريته. لم يعد يفكر في الحب على الطريقة الشرقية. حب الآهات والدموع، ولم يعد يفكر في الزواج وتكوين عائلة، ولم يعد يفكر في المجتمع البشري وآلامه الاجتماعية.
صار يؤمن أن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا يريد البشر النظر إليها، وأن الإنسان هو أبشع المخلوقات على هذه الأرض.
صار يؤمن بالروحانيات بشكل واضح، فالإنسان ليس سوى جيفة تتحرك، لكن اللغز في نسمة الحياة، أو كما تسمى: الروح.
صار يفكر في الروح. تأكد من أن السمة الحقيقية في الإنسان هي روحه. حين تغادر الروح لا يبقى من الإنسان سوى هذا الجسد البشع من الداخل.

بعد فترة قصيرة من عمله أخذ يفكر في الأطباء ومساعديهم. هل هؤلاء بشر ويمتلكون أحاسيس وعواطف. كيف يذهبون إلى بيوتهم ويجلسون على مائدة الطعام، بل كيف يأكلون اللحوم، علماً أن الذي أثار استغرابه أن هؤلاء الأطباء ومساعديهم يحبون أكل اللحوم، فكثيراً ما كانوا يرسلون الساعي لشراء الكباب أو الرز مع قطع اللحم المشوي أو المسلوق من المطعم القريب من المشرحة.

ذات مرة استيقظ مبكراً جداً. لاإرادياً ذهب إلى قاعة الجثث، فلمح مساعد الطبيب يحضن إحدى جثث النساء رافعاً رجليها إلى الأعلى دافعاً بقضيبه في فرج المرأة الميتة التي حملوها عصراً إلى المشرحة. فكّر في دناءة هذا الرجل، لا سيما وهو متزوج ولديه أطفال؟ ما هي الرغبة التي يمكن أن توقظها في نفسه جثة باردة، يابسة، ومتخشبة؟ جثة تفوح منها رائحة الموت الغريبة؟

لكنه انتبه، بعد ذلك، إلى أن المرأة كانت في حياتها جميلة وذات جسد مثير، إلا أنها الآن جثة هامدة، باردة، فاقدة للإثارة على الرغم من عريها الفاتن؟ كما أنه انتبه إلى أن المساعد تفوح منه رائحة كريهة أيضاً، ربما أكثر عفونة ونتانة من رائحة جثة المرأة العارية.

مرّت فترة أخذ يهتم بقراءة الكتب الدينية، والكتب التي تتحدث عن الأرواح، وعذاب القبر وأهواله، لكنه ترك قراءة هذه الكتب لأنه وجد فيها الكثير من الأوهام والترهات. ما من أحد يعرف سر الموت، ولا أحد يعرف لغز الحياة. بل إنه أحياناً يشارك حجج الماديين في أن الحديث عمّا بعد الموت هو أوهام وخيالات الأحياء نتيجة خوفهم من الموت، فما من أحد عاد من الموت ليخبرنا عن سره.

أحياناً كان يفكر بهؤلاء الفلاسفة الذين يحترم تفكيرهم الفلسفي وتأملاتهم، ويسأل نفسه: كيف دوّنوا تلك الترهات فهم يتحدثون عن الحساب في القبر وأهواله، ثم يسأل نفسه: ماذا عن مئات الملايين من الهنود الذين تمّ حرقهم وأُلقي برمادهم في الأنهار المقدسة؟ كيف سيحاسبهم منكر ونكير؟ وماذا عن المسيحيين الذين يؤمنون بأن السيد المسيح هو مخلصهم وهو الذي تحمّل ذنوب البشر كلها؟

كان يجلس لفترات طويلة مفكراً في البشر، وكيف هم يسمون هذا الكوكب الأرض، بينما الأرض لا تشكل سوى سدسه؟ فالبحار والمحيطات هي التي تحتله، أي أنه كوكب الماء.

كان يفكر في هذه الأرض التي هي أصغر من حبة رمل صغيرة في هذا

الكون المترامي الأنحاء والذي يزدحم بعشرات المجرات الهائلة ومليارات المليارات من الكواكب والنجوم؟ أحقاً أن هذا الكون كله خلق من أجل الإنسان؟ من أجل هذه الكتلة من السوائل الكريهة والبول والبراز والفضلات النتنة؟ هذه الكتلة من الغرائز والرغبات؟

لِمَ يعتقد الإنسان أنه سيد الأرض؟ بينما عدد الأشجار تفوق عدد البشر مئات المرات؟ أيهما أجمل وجوداً، الأشجار أم الإنسان؟ الأزهار أم الإنسان؟ أين هي يا ترى تلك الأفكار العظيمة والتأملات الفلسفية الهائلة؟ أين شطحات الصوفيين؟ أين عالم النور الذي غنّى له الشعراء والمصلحون؟ أين الأفكار العظيمة التي تعذّب المفكرون، وقتلوا، وصلبوا، وأعدموا، من أجلها؟ هل جثث هؤلاء تختلف عن جثث عامة الناس؟ أين هي الحقيقة؟ أين هو الجمال؟ أين هو الخلاص؟

لكن بالرغم من أنه يعمل في المشرحة منذ حوالى سنة وثلاثة أشهر، إلا أن هذه الأفكار والتحولات النفسية والفكرية التي تعرّض لها وعاشها كانت نتيجة تعامله اليومي مع الجثث البشرية في أبشع صورها.

كان يفكر في الأحياء من خلال حقيقة موتهم، ونهاية دورهم في الحياة، وليس من خلال تأمل الحياة الواقعية، التي يعيشها هو أيضاً، لذا ارتعب حينما شاهد الفيلم عن ذبح الشاب هادي في حوض الحمام في بيت أحد الأعضاء المهمين في الدولة.

كان ثمة حاجز خفي بين الحياة والموت، شعور تعوّد عليه، واستمدّه من الأطباء ومساعديهم، شعور يتلخص في أن الجثة ليست بشراً، ولا يمكن التعامل معها على هذا الأساس. هي جسد ميت بلا روح. كتلة من اللحم والعظام المغطاة بالجلد. ذبيحة يمكن التعامل معها بلا أي شعور بالذنب أو الإحساس بالتعاطف.

لكنه كان يقاوم مثل هذا الشعور. لم يكن يستطيع ألا يقرن الجثة بشخصية صاحبها أو لا يفكر فيها بأنها كانت تنبض بالحياة، وكانت لها مشاعرها وأحلامها وأحقادها وتأملاتها الفكرية والعقائدية، مثلما يتأمل هو الآن. هذا الإحساس كان يعذبه ويتركه في حالة تناقض وصراع نفسي مستمر.

(4)

يوم عراقي عادي جداً

استيقظ الحارس آدم على صوت ضجيج يجتاح الطابق السفلي من المشرحة، حيث تقع قاعة الجثث المعدّة للتشريح، وسمع أصواتاً وجلبةً على غير الأيام الاعتيادية. نظر إلى الساعة المنضدية فرأى أنها لم تتجاوز الثامنة والنصف صباحاً. فتح باب غرفته ليعرف ما يجري، فوجد مساعد الطبيب يدفع بالسرير المتنقل مسرعاً، وما أن رآه الآخر حتى صاح فيه أن يسرع إلى الباب الخارجي ليأتي ببقية الجثث، فقد حدث انفجار في موقع لتجمع الناس صباحاً، وقد سقط العديد من الضحايا الذين تمّ توزيعهم على المستشفيات، بينما حملوا إليهم خمس جثث لنساء كنَّ قريبات من موقع الانفجار.

كان ممر الطابق تحت الأرضي مزدحماً برجال الحرس الوطني، وبعض سائقي سيارات الإسعاف التابعين لإحدى المستشفيات، وإدارة المشرحة مع الأطباء ومساعديهم.

ركض الحارس آدم مسرعاً إلى الأعلى فرأى بعض العاملين وهم يدفعون عربتين عليهما جثتان وهم يتراكضون ناحية المصعد الذي عليهم إنزال الجثث إلى قاعة التشريح من خلاله.

حين وصل الحارس آدم إلى الشارع توجه مباشرة إلى سيارات الإسعاف الثلاث التي كانت تقف أمام المشرحة لم يجد فيها أية جثة. وبالرغم من أن حمل الجثث إلى الداخل ليس من مهامه، لكن بحكم استقراره المعيشي في المستشفى فإن دوامه الرسمي صار غير محدد، وصار يُكلف بمهام أخرى كنقل الجثث أو إحضارها من قاعة الثلاجات أو حتى مساعدتهم عند التشريح عند الدوام الرسمي الصباحي.

نزل الحارس آدم إلى الطابق السفلي حيث قاعة الجثث فالتقى في الممر برجال الحرس الوطني وهم يتوجهون إلى الخارج ومعهم مدير المشرحة وبعض الأطباء والمسؤول الإداري وبعض الرجال الذين لم يعرف من هم. لم يعرهم اهتماماً بل استمر في طريقه متجهاً إلى قاعة الجثث.

كان الممر مكتظاً بعربات نقل الجثث التي ازدحمت على الجانبين، وكانت بعض العربات قد تلطخت بالدم.

حين دخل القاعة وجد أن ثلاث جثث ما زالت على الأسرّة المتنقلة التي حملت عليها أصلاً من سيارات الإسعاف، وجثتين ممدتان على السرير المعدّ من الصفيح والمسند على مصطبة من المرمر. كانت الجثث جميعها لنساء

من مختلف الأعمار والشرائح.
على السرير النقال القريب من باب القاعة كانت جثة فتاة في بدايات العشرين من عمرها. تلبس بنطلوناً من الجينز وسترة ملونة بالأحمر والأبيض مع تقاطعات لخطوط عريضة رمادية وسود، وتحت السترة كان يبدو قميصها الأحمر. لم تبدُ وكأنها نائمة نوماً عميقاً. كانت في كامل زينتها. تأمل وجهها جيداً فراوده إحساس بأن هذا الوجه ليس بغريب عليه، حاول التذكر لكنه لم يستطع أن يتذكر أين رأى هذا الوجه.
تفحص الجثة باحثاً عن الإصابة التي سبّبت الموت فلم يجد أي أثر للدم أو لأي جرح واضح. انتبه إلى أن إحدى القدمين كانت في الحذاء بينما القدم الأخرى حافية.
على السرير النقال الآخر الذي وضع قرب النافذة المطلة على الممر، قرب الباب أيضاً، كانت جثة أخرى مسجاة. جثة لامرأة محجبة. امرأة شابة في غاية الجمال. وجه بملامح حادة، صارمة ودقيقة، ذكّرته بوجوه تأملها في بعض اللوحات العالمية. الرأس كان مغطى بحجاب من الحرير الذي رُسمت عليه نقوش جميلة، حجاب يمتد حتى كتفيها، بينما جسدها يختفي تحت ثوب طويل أشبه بطيلسان طويل يغطيه من الرقبة حتى القدمين.
أعجبه وجهها البريء وأناقتها قياساً للنساء المحجبات. كانت تبدو أيضاً وكأنها نائمة. فتّش أيضاً عن إصابتها، فلم يكتشف شيئاً أيضاً. دهش مع نفسه من هذا الانفجار الذي لم يجرح أحداً، والذي ترك ضحاياه وكأنهم يغطون في نوم عميق.
في وسط القاعة كانت جثة ضئيلة ملفوفة بعباءة سوداء. اقترب منها فرأى امرأة عجوزاً في حدود السبعين من العمر. كانت عيناها مغلقتين وعلى وجهها إثر ابتسامة مرّة وساخرة. هل كانت تسخر من الموت أم من الحياة؟
فتّش عن إصابتها. لم يجد شيئاً. فكّر ربما لأنها ملفوفة بالعباءة، لكنه انتبه إلى أن العباءة قد تلطخت بالدم عند منطقة الصدر، كما انتبه إلى أن جثة العجوز ليست هي وحدها التي تشغل السرير المتنقل وإنما في الجانب الآخر جثة لصبي صغير في الثامنة من عمره بملابس المدرسة، ولأن العجوز كانت صغيرة الحجم فإنهم وضعوا جثة الصبي معها على السرير نفسه.
على السرير النقال الذي يقع إلى يسار القاعة وضعت جثة لامرأة قصيرة القامة، أنيقة الملابس، بينما وجه الجثة يكشف عن خوف وألم وكأنها كانت

تعي موتها في تلك اللحظات التي واجهته فيها. انتبه لبقعة دم وثقب في جانب الرأس. خمّن مع نفسه ربما ماتت من إثر شظية جاءتها في الرأس.
في أعماق القاعة كانت جثة أخرى لامرأة شابة جميلة الملامح، لكنها كانت مذبوحة العنق. كيف ذلك؟ فكّر الحارس آدم. إذ كانت تبدو وكأن عنقها قد قطعته سكين أو آلة حادة، وأن لا علاقة لها بالانفجار. كانت المرأة في ملابس رسمية اعتيادية وكأنها كانت ذاهبة إلى دائرتها.
سأل الحارس آدم نفسه: لماذا جميع الجثث من النساء وليس بينها أي رجل سوى جثة لصبي صغير في الثامنة؟
غادر الحارس آدم قاعة التشريح إلى الممر الذي كان خالياً من أي شخص والذي بدا له وكأنه يقع في مكان مجهول. خطا نحو غرفته التي تقع بين قاعة التشريح وقاعة الثلاجات.
فتح باب الغرفة، لكن وبشكل مفاجئ أغلقها واتجه إلى الطابق الأعلى، إذ راوده فضول أن يعرف شيئاً عن الانفجار وعن أصحاب الجثث التي تتمدد في قاعة التشريح، بالرغم من أن المشهد سيتكرر: قلق عام، وجوه كثيرة، غريبة، كل منها يضفي على نفسه أهمية ما لعلاقته بشكل أو بآخر بالضحايا أو المسؤولين الحكوميين. حركة فوضوية حامية من قبل العاملين في المشرحة. بعض المواطنين الذين يبحثون في أسماء الضحايا.
وصل آدم إلى الطابق الأرضي تأكد مما توقعه. ازدحام عند المدخل والاستعلامات. حركة موظفي المشرحة الواضحة التي تبين انشغالهم بالحدث. عدد لا بأس فيه من مراتب الحرس الوطني. رجال في ملابس مدنية يحاولون مع إدارة المستشفى معرفة هويات الضحايا من خلال تفتيش بعض الحقائب التي وجدت هناك والتي تعود للضحايا بلا شك.
بعض الضحايا قد تمّ التعرف عليها، لأنه سمع بعضهم يتداول أسماء واحدة أو اثنين منها، وعرف أن هذه الأسماء التي يتم تداولها بينهم تعود لضحيتين معروفتين لمعظمهم، لكنه لم يعرف من يقصدون منهن، حيث يبدو أن عائلات الضحايا لم تعرف بعد بما حدث.
ظل طوال اليوم يتحرك بين القاعة وبين الطابق الأرضي. وبالرغم من أن الدوام قد انتهى إلا أن الأطباء وإدارة المستشفى بقوا في المشرحة، لا سيما وأن بعض وسائل الإعلام والصحافيين قد وصلوا إلى المشرحة. يبدو أن بين الضحايا شخصية نسائية معروفة، أو زوجة أو قريبة، أو ابنة لشخصية معروفة ومهمة.
الصحافيون لا يأتون إلى المشرحة ولا يزورونها إلا نادراً، إلا حينما تكون

الضحية من الشخصيات التي كانت مهمة أو تقرب لشخصية مهمة. بعض الصحافيين حاول التسلل إلى الطابق السفلي وتصوير الجثث إلا أن إدارة المشرحة قد منعت ذلك بشكل تام، وقد كان هو في الطابق السفلي يتصدّى لكل من يريد التسلل إلى القاعة حيث الجثث. بعضهم حاول بشتى الطرق، بل وعرض عليه شيئاً من المال مقابل السماح له بالتصوير، لكنه رفض بشدة. ظل بعض المصورين يحومون حول المشرحة حتى أول الليل، لكنهم انسحبوا جميعاً بما فيهم إدارة المشرحة وكل العاملين فيها، ولم يبقَ إلا الكادر الخفر.

أحسَّ الحارس آدم بالراحة من ذهاب الجميع، فهو يعرف أن من تبقّى لن ينزل إلى الطابق الأسفل، ولن يتسلّل أي من الصحافيين إلى قاعة التشريح.

الليل في بغداد مرعب. شوارع مقفرة وزوايا معتمة يطنّ فيها الصمت. لا كهرباء ولا أضواء، ولا دبيب حياة، إلا في بعض المناطق التي يسكن فيها بعض السياسيين وقادة الأحزاب، والتي تضم بعض المطاعم، وبعض المحلات التجارية، والتي تعجّ بجيش كامل من أعوانهم ومن رجال الحرس الوطني. العتمة هي التي تلوِّن الحياة والموت في بغداد.

حين ينتهي الدوام الرسمي تقفر المشرحة، وتتحول إلى مكان خارج الزمان والمكان، خارج التاريخ. يختفي الكون كله، وتنتقل الحياة في بغداد إلى مشرحة، ففيها صورة الحياة والموت في المدينة المظلمة.

وبالرغم من أن المشرحة تكون شبه خالية من الموظفين والأطباء في الليل، سوى الطبيب الخفر ومساعده، إلا أن الطابق الأعلى يضجّ بأصوات غريبة، وبحركة سرية، لكنها واضحة ومسموعة أيضاً. وتستمر الأصوات والحركة إلى الساعات الأولى بعد منتصف الليل. وبالرغم من أن الحارس آدم سعى إلى معرفة مصدر هذه الأصوات والحركة، ولم يكن أمامه سوى أن يسأل مساعد الطبيب الخفر، إلا أن هذا المساعد لم يساعده في إعطاء الإجابة وإنما زاده غموضاً، حينما حذّره من أن يسأل غيره وإلا فإنه سيحجز في مكان لا مخرج له منه.

زادت حيرة الحارس آدم، فهذا الغموض الذي تضمنته كلمات مساعد الطبيب أثارت فضوله أكثر لمعرفة ما يجري في الطابق الأعلى. كان يتحين الفرص للصعود إلى هناك، لكن لم تؤاته أية فرصة حقيقية لإرواء فضوله. دائماً يجد مساعد الطبيب متربصاً له، وكأنه يعرف نواياه، ففي أي وقت من الليل يصعد إلى الطابق الأرضي ناوياً الصعود إلى الطابق الأعلى يظهر له مساعد الطبيب في الممر، أو عند الاستعلامات أو نازلاً من الطابق

الأعلى، أو خارجاً من باب إحدى غرف الموظفين المغلقة، ليسأله عما يريد، ولماذا هو يريد الصعود، فيخبره بأنه نسي أن يفتش الغرف إن كانت مغلقة بالمفتاح أم لا؟ فتأتي إجابة المساعد بأن واجبه هو أن يقوم بحركة التفتيش الليلة قبل منتصف الليل، وليس من حقه أن يقوم بذلك بعد منتصف الليل، وفعلاً، فإن الحارس آدم منذ عمله كحارس في المشرحة يقوم بالتفتيش في المشرحة ليلاً، ودائماً قبل منتصف الليل، ولم يحدث أن قام بذلك حتى هذا الوقت، غير أن الأصوات التي يسمعها والحركة الواضحة التي يشعر بها تحدث بعد منتصف الليل، وبعد أن يقوم بجولته الليلية.

دخل الحارس آدم إلى غرفته في الطابق تحت الأرضي. جلس على الصوفة الجلدية، انتبه إلى أن الوقت هو العاشرة ليلاً. فكّر أن بغداد غارقة الآن في الظلام، الخوف والغدر والموت يتربصان في كل زاوية ومنعطف وزقاق فيها. لم يكن يعرف ماذا يفعل، هل يبدأ بجولته الليلية في المشرحة، أو ينتظر قرب حلول منتصف الليل؟

أجال النظر في غرفته. الكتب التي اشتراها من شارع المتنبي تتراكم فوق بعضها على طاولة في الجانب الآخر من الغرفة الصغيرة، وعند رأسه مجموعة من الكتب وأقراص الأفلام (دي في دي). لا يعرف لِمَ، وكيف، تذكّر أبيات شعر مترجم لشاعر إنكليزي، فردّدها مع نفسه:

قد سمعت صوت المفتاح

يدور في الباب مرة، ولا يدور إلا مرة

نحن نفكر في المفتاح، كل في سجنه

يفكر في المفتاح، كل منا لا يتثبت

من سجنه إلا عند حلول الليل...

انتبه إلى أن حياته الحقيقية تبدأ في الليل أيضاً، ويتحقق من عالم الأسرار في الليل أيضاً، فكل ما يدور في النهار من حركة للمراجعين، ونقل للجثث، وتشريح لها، لا يكاد يكون هو العالم الحقيقي والواقعي، وإنما في الليل، حينما تخلو المشرحة من دبيب الناس وحركتهم، وبالتحديد بعد منتصف الليل، حيث تبدأ الحركة الحقيقية في الطابق الأعلى، إذن، هل عليه أن يتثبت من سجنه كما تقول القصيدة. هل هو معزول وسجين في المشرحة أو حارسها، وحارس الجثث التي ترقد فيها؟

ظل جالساً، ومفكراً في عدم رؤيته أي شيء يثير التساؤل حينما يقوم بالتفتيش؟ لذا قرر أن يتأخر في جولته هذه الليلة إلى ما بعد منتصف الليل. ولكي يقضي الوقت المتبقي في غرفته، ضغط على الريموت كونترول

فبدأ التلفزيون يبثّ برنامجاً حوارياً سياسياً، فضغط متنقلاً بين المحطات التلفزيونية التي كان معظمها يبثّ برامج حوارات سياسية، وهو بطبعه يكره السياسة والسياسيين، لا سيما وهم يتحدثون بطريقة تكاد تكون واحدة، بل أحياناً يرى بعض من يُطلق عليهم اسم المحللين السياسيين يظهرون في أكثر من قناة في الوقت نفسه، لكنه انتبه إلى أن من يشاهدهم على شاشة التلفزيون، بمن فيهم المسؤولون عن مصير البلاد، يبدون وكأنهم يضعون أقنعة على وجوههم، لأنهم يشبهون الموتى بعد التشريح وخياطة الجسد. لا سيما في منطقة الصدر وأعلى الجبين عند حدود فروة الرأس.

فكّر الحارس آدم مع نفسه، لماذا هو يعمل في المشرحة، أليس هناك وظائف أخرى يمكن أن يعمل فيها؟ فحتى أمه الوحيدة صار لا يراها، فقد مضت عليه أكثر من ستة أشهر لم يقم بزيارتها، لماذا؟ هو نفسه لا يدري سبب عدم زيارته لأمه.

انتبه إلى أن الوقت يمضي بسرعة، فها هي الساعة قد قاربت الحادية عشرة، إذن عليه أن ينتظر ساعة أخرى ثم يقوم بجولته الليلية. فجأة، سمع طرقاً على باب غرفته. نظر من البؤبؤ الزجاجي الذي يتوسط الباب، فرأى مساعد الطبيب ينظر إلى العين الزجاجية للباب من الجهة الثانية، توقف للحظة سائلاً نفسه عن سبب مجيئه، ولم يكن أمامه سوى أن يفتح له.

كان مساعد الطبيب واقفاً. ظل للحظات يتأمل وجهه وكأنه يحاول أن يستكشف من ملامحه شيئاً خفياً، ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى، وسأل:

- ما الذي جرى يا آدم؟

- ماذا؟ أجاب مستغرباً.

- لماذا لم تقم بجولتك الليلية لحدّ الآن؟

- سأقوم بها في ما بعد.

- لا.. يجب أن تقوم بها الآن، لأن الطبيب الخفر يريد أن ينام، ولا يريد أي إزعاج، أو شخص يصعد إلى الطابق الأعلى حيث ينام، وهو لا يسمح بذلك بعد منتصف الليل.. فإذا أردت أن تقوم بجولتك الروتينية فعليك أن تقوم بها الآن، وليس في ما بعد.. وإلا عليك إلغاءها الليلة.

- لكنني سأقوم بها حالاً.

- هذا أفضل لك، أن تقوم بها قبل منتصف الليل، لأني انتبهت أنك تأخرت هذه الليلة، فقلت ربما أنت مندمج مع أحد أفلامك ولم تنتبه

للوقت.
- لا.. أبداً.. سأقوم بها حالاً..
- إذن.. إلى الغد.. لأني سأذهب للنوم.. فلقد كان يوماً مرهقاً..
قال المساعد ذلك وذهب، بينما ظل الحارس آدم واقفاً للحظات، أغلق الباب. جلس على الصوفة. ضغط على الريموت كونترول موقفاً البث التلفزيوني. لم يكن مقتنعاً بكلام المساعد في أن الطبيب الخفر يريد النوم، ولا يسمح بالتفتيش بعد منتصف الليل، بل هناك سر، وعليه أن يكشفه.
وبالرغم من أنه وعد المساعد بأنه سيذهب حالاً في جولته الاعتيادية، إلا أنه قرر مع نفسه بأن سيصعد إلى الطابق الأعلى بعد منتصف الليل. فجأة اهتزت الغرفة والمشرحة كلها من صوت هادر هائل. لقد اهتزت السماء بالرعد والبرق، وهطلت الأمطار بشكل مفاجئ وسريع وعلى غير توقع من مرصد الأنواء الجوية الذي يعلن تقديراته يومياً من خلال شاشة التلفزيون.
سمع صوت المطر يسقط على الإسفلت خارج المشرحة من خلال الشباك الصغير الذي يطل من جزئه العلوي على أرضية الشارع الخارجي لكن من الجهة الخلفية للمشرحة.
أحسّ بقشعريرة تسري في نفسه. هل سيقدم الليلة على مغامرته بزيارة الطابق الأعلى؟ لكن هذا التساؤل كان متأخراً بالنسبة إليه، فقد كان إصراره على أن يقوم بذلك قد حسمت أي تساؤل متأخر.
نهض من مكانه. فتح باب الغرفة خارجاً وبيده رزمة من المفاتيح. كان تفكيره متمركزاً على الصعود إلى الطابق الأعلى. حين صار في الممر وقف مفكراً مع نفسه، هل يبدأ بقاعة التشريح وقاعة الثلاجات، ثم يصعد إلى الطابق الأرضي ثم الأعلى، أو العكس. قرر أن يصعد إلى الطابق الأرضي لينتهي منه، منتظراً الأصوات والحركة، عندها يصعد إلى الطابق الأعلى.
صعد السلم إلى الطابق الأرضي على مهل. حين صار في الطابق الأرضي ألقى نظرة على الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف. عليه الانتظار لمدة نصف ساعة أخرى.
من عادته في جولته التفتيشية أن يذهب يتأكد من البوابة الخارجية، ثم الأبواب الخارجية الأخرى التي تشكل مدخلاً للمشرحة، ثم يتجول في الممرات ليتأكد من الأبواب. حينما توجّه إلى الباب الرئيسي كي يذهب إلى البوابة الخارجية، انتبه إلى أن المطر في الخارج يهطل بشدة، وصوت البرق والرعد يهزّ المدينة كلها بين فترة وأخرى.
توقف عند الباب الرئيس الداخلي. انتبه لوجود ظلال أشخاص يقفون في

المطر قرب البوابة الخارجية وكأنهم يريدون الدخول إلى المشرحة. وضع يده أمام عينيه ليتأكد من الرؤية، فتبيّنت له صورة لأشباح ثلاثة في معاطف مطرية وقبعات على الرأس، وهم يحملون مظلات واقية من المطر بأيديهم. كانت الأشباح الثلاثة تنظر إليه بتحدٍّ وكأنها تنتظر أن يفتح لها، ابتعد خائفاً.

أحسّ بسريان الخوف في نفسه. تراجع. أراد العودة إلى غرفته، لكن راودته رغبة في التأكد من الأمر. رجع إلى الباب، نظر من خلفه إلى البوابة الخارجية فلم يرَ أحداً. ازداد فضولاً في التحقق مما رآه قبل قليل. جال ببصره في المساحة المتاحة أمامه فلم يجد أي شيء يدل على وجود أشخاص. ظل لدقائق ينظر إلى الشارع الذي يغسله المطر. فجأة لم يعد يرى شيئاً، إذ وقف شخص أمامه، على الجهة الأخرى من الباب الرئيسي.

الشخص الآخر كان يضع يديه أمام عينيه ليرى الحارس آدم أو يتأكد من وجوده. صرخ الحارس آدم وتراجع راكضاً باتجاه الطابق تحت الأرضي حيث غرفته.

تعثّر على السلم، وكاد يتدحرج إلى الأسفل، لكنه حاول التماسك والتشبث بالسياج الحديدي الذي يلتف مع انسياب درجات السلم، لكنه لم ينزل مباشرة وإنما جلس مقرفصاً على السلم، وأطلّ برأسه بحذر محدقاً إلى الباب الرئيسي، فرأى ظل الرجل لا يزال عند الباب، لكنه كان يقبض على مصباح يدوي مضيء يوجهه نحو أعلى السلم الصاعد إلى الطابق الأعلى، وإلى سقف الطابق الأرضي، وكأنه يعطي إشارة ما.

انتبه الحارس آدم إلى أن ثمة حركة تأتي من الطابق الأعلى، وسمع وقع أقدام تقترب، فخاف من أن يراه أحد، فنزل السلم مسرعاً، وحينما صار في الطابق تحت الأرضي، ركض إلى غرفته داخلاً. أغلق الباب خلفه بالمفتاح. جلس على الصوفة مقشعراً من الرعب.

(5)

الهؤلاء.. والمنسيّون

مَن هم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا أمام البوابة؟ كيف اختفوا فجأة؟ ومَن هو هذا الذي كان ينظر إليّ عبر المدخل الرئيس للمشرحة؟ من أين جاءوا؟ ولماذا في مثل هذا الوقت؟ هل هم من الهؤلاء، زوار الفجر، الذين يأتون عادة بعد منتصف الليل؟ هل هم الذين يثيرون الضجة في الطابق الأعلى بعد منتصف الليل؟

كان الحارس آدم مرعوباً، لكنه بالرغم من ذلك لا يكفّ عن التساؤلات، بل إنه وبرغم الرعب الذي يهزّه فإن رغبته بزيارة الطابق الأعلى وكشف سر الأصوات والحركة المستمرة لم تخفت.

مرّ وقت طويل عليه وهو جالس على الصوفة باحثاً عن إجابة في متاهة التساؤلات التي يثيرها مع نفسه. نظر إلى الساعة المنضدية فرأى أنها تشير إلى خمس دقائق بعد منتصف الليل. انتبه إلى أنه لا أصوات ولا حركة تأتي من الطابق الأعلى. استغرب الأمر، فعادة في مثل هذا الوقت تكون الأصوات والحركة واضحة.

لم يسحبه من متاهته سوى صوت خافت لوقع خطوات أشخاص ينزلون السلم إلى الممر. أصاخ السمع، فأحسّ بأن الأشخاص صاروا في الممر. قفز إلى الباب، نظر من خلال البؤبؤ الزجاجي، رأى مساعد الطبيب وثلاثة رجال بمعاطف مطر شتوية يتحدثون في ما بينهم بصوت خافت لكن يمكن سماعه وتبيان مضمونه.

وقفوا عند بابه. كانت على وجوه الرجال الثلاثة ملامح صارمة وكأنهم يريدون أن يطرقوا الباب، لكنه سمع المساعد يقول لهم:

- لا داعٍ أيها السادة. صدقوني، هذا الحارس غبي، ومجرد سؤاله ربما سنثير شكوكه أكثر. هو لا يتكلم مع أحد تقريباً، ولا يسأل إلا نادراً، بل لا يجيب على الأسئلة تقريباً، وكان يسمع بعض الأصوات لكنني طمأنته. وأعتقد أنه نائم الآن.

فقال أحدهم بصوت خافت لكنه صارم وحاد:

- لكني رأيت شخصاً عند الباب ينظر من خلال زجاج الباب الرئيسي، باب المدخل. ثم اختفى فجأة.

فقال المساعد بنبرة من يحاول تهدئة الآخر وإقناعه:

- من المؤكد أنه ليس الحارس، فقد كنت عنده في حدود الساعة الحادية عشرة، وقال لي بأنه سيقوم بجولته الروتينية حالاً، وكما أعرف جيداً أن

الأمر لا يطول أكثر من ربع ساعة، وهذا يعني أنه لم يكن الشخص الذي رأيته يا سيدي حاج آدم العسكري.
فسأل شخص آخر بالنبرة نفسها قائلاً:
- مَن يكون إذن؟
صمت المساعد لحظة ثم قال بطريقة ماكرة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:
- ربما من هؤلاء المنسيين الذين بقوا لدينا، ولم نخرجهم، أو ممن خرجوا وجئنا بهم ثانية؟ فكما تعرف هؤلاء غير منضبطين ويستهزئون بكل ما نقوم به.
صمتوا جميعاً، وكأنما ما قاله أقنعهم، لكن أحدهم قال:
- أعتقد أن الذي كان هو الحارس وليس أحد من هؤلاء.. لكن ربما أنت على حق أيضاً. لنذهب إذن.
كان الحارس آدم عند الباب من الداخل. إحدى عينيه مثبتة بالبؤبؤ الزجاجي. سمع كل ما دار بينهم من حوار، ورآهم يستديرون راجعين، صاعدين السلم، إلى أن اختفى صوت وقع أقدامهم.
ظل واقفاً للحظات، مفكراً بهؤلاء الرجال الثلاثة؟ كيف دخلوا إلى المشرحة؟ ولماذا دافع الحارس عنه؟ ومن هم هؤلاء المنسيّون؟ أين هم؟ وماذا يعني هذا، هل هذا يعني وجود قاعات أخرى في الطابق الأعلى؟ ولماذا يأتون بالناس الأحياء إلى هنا، هذه مشرحة؟ لكن أين يحفظونهم؟ إنه يعرف الطابق الأعلى لا توجد فيه سوى غرف الطبيب الخفر، ومدير المشرحة الذي يكون دوامه صباحياً فقط وغرفة السكرتارية الخاصة به، وقسم الحسابات، ولا يوجد في الطابق الأعلى غير هذا؟
جلس على الصوفة الجلدية شاعراً بالضياع. ماذا عليه أن يفعل؟ أحسَّ أنه في الأشهر الأخيرة صار لا يعرف نفسه جيداً؟ صحيح أنه كان دائماً بالكاد يعرف نفسه، وكان يحسّ بطعم آخر للحياة، حيث كان يزور أمه المسكينة ويعطيها معظم ما يقبضه من المشرحة، ولا يستقطع منه إلا ما يحتاجه لشراء الكتب والمجلات وأقراص الأفلام، إلا أن كل ذلك اختفى فجأة، كل شيء تغير. فقد الرغبة في كل الأشياء، حياته تحوّلت إلى روتين قاتل في هذه المشرحة التي تملأه بالرعب، لأنه يكتشف يومياً أشياء جديدة تثير الخوف والتساؤلات المرعبة.
فجأة راوده شعور بأن عليه أن يعرف كل شيء لأنه حارس المشرحة، والمسؤول عن كل ما فيها من أشياء، جثث وكتب وأدوات، وأسرار. لكن أية أسرار وهو لا يعرف ماذا يجري في الطابق الأعلى؟ ولا يعرف من

يدخل ومن يخرج منها؟ بل هو لا يعرف وظيفة هذا المساعد أصلاً؟ فهو أكثر أهمية من الجميع.

لم يستطع الحارس آدم الرقاد. حاول ذلك بعد أن تمدّد على الصوفة الجلدية وغطى نفسه بالبطانية القطنية، لكن دون جدوى. فجأة، سمع أصوات موسيقى تأثيرية كتلك التي تصاحب أفلام الرعب، موسيقى متوترة، موسيقى تصاحبها أصوات جموع كورالية، موسيقى حزينة ومتوترة، تبعث الرهبة والانتعاش في النفس. كانت الموسيقى تأتيه من بعيد.

قام مقترباً من النافذة متتبعاً الموسيقى، فعرف أنها تأتي من الطابق الأعلى، ومن جهة غرفة الطبيب الخفر. كيف ذلك والوقت الآن، كما تشير عقارب الساعة، هو منتصف الواحدة بعد منتصف الليل؟

تملّكته إرادة غريبة في أن يصعد إلى غرفة الطبيب الخفر، لأن صوت الموسيقى يعني أنه لم ينم بعد؟ وهذه الموسيقى تدعوه للصعود إلى الأعلى بجاذبية سحرية.

نهض واقفاً، نظر في أرجاء غرفته نظرة سريعة مستعرضاً كل جوانبها، لكن دون أي هدف محدد، وخرج.

كان الممر خالياً. توجّه إلى السلم صاعداً بحذر. ليس ثمة أحد في الطابق الأرضي سوى هذا السكون الثقيل الذي يقبض على النفس بقوة. لم يعد يسمع أي صوت يأتي من الطابق الأعلى. كيف توقفت الموسيقى؟ هل هناك من انتبه له؟ لكن لا أحد هنا، فحتى المساعد الذي يظهر له في أي محاولة للصعود إلى الطابق الأعلى بعد منتصف الليل قد اختفى.

ما أن وضع قدمه على درجة السلم المتجه إلى الطابق الأعلى حتى أحسّ بالارتباك والخوف والتردد، لكن إرادة المعرفة لديه كانت أقوى من كل هذا. صعد السلم بخطوات حذرة، لم يستخدم مصباحه كي لا يثير أحداً، إذا ما كان هناك من أحد.

عند الدرجة الأخيرة تعثر، كاد تعثره يثير ضجة، لكنه انبطح على الأرض بكل جسده، ثم بدأ يزحف على أرضية الطابق الأعلى. ألقى نظرة على الطابق محاولاً أن يستكشف شيئاً في هذه العتمة، فانتبه إلى أنه ليس في الطابق الأعلى؟ كيف؟ إنه لم يصعد سوى طابق واحد، وأن المشرحة ليس فيها سوى الطابق الأرضي المواجه للباب الرئيسي، والطابق تحت الأرضي حيث قاعة التشريح وقاعة الثلاجات، وهذا الطابق الأعلى، لكن هذا الطابق ليس هو الطابق الذي يعرفه ويفتشه كل ليلة؟

ظل منبطحاً على الأرض. أجال بصره محاولاً اختراق العتمة فربما ضلّلته

عيناه قبل قليل، لكن ماذا يرى؟ هذا ليس الطابق الذي يعرفه. إنه يرى أمامه ممراً واسعاً على امتداد البصر، تتوزع الغرف والزنازين على جانبيه، أرضيته وجدرانه من المرمر. ممر أشبه بممرات المركبات الفضائية الكبرى التي يراها في أفلام الإثارة العلمية.
سعى بضع خطوات زاحفاً، مقترباً من أول غرفة على مقربة من السلم. سمع حواراً خافتاً، أصوات خائفة تتحاور. زحف بحيث صار قرب الباب، مستمعاً للحوار الذي بدا بين ثلاثة أشخاص أو أكثر، فانتابه الفضول للاستماع إليهم فربما سيعرف أين هو من خلال ما يتحدثون فيه. كان أحدهم هو الذي يبدو الراوي، ويبدو أنه يروي لآخرين جدد معه في الغرفة، لأنه انتبه من خلال الحوار بأنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً، سمع أحدهم يتحدث قائلاً:
- نعم.. كنت ماشياً في طريقي إلى الفرن، وكما قلت لكم أنا أعمل خبازاً. رأيت سيارة للشرطة تقف بالعرض من الطريق وعلى جانبه قاطعة منتصفه، أشبه بسيطرة مؤقتة ومتنقلة، من حيث توجد في هذا المكان سيطرة عسكرية ثابتة منذ سنوات. خفت أول الأمر، لكني استرجعت شيئاً من شجاعتي لأني رأيت السيارة العسكرية ولمحت الضابط واثنين من الشرطة معه. حينما اقتربت منهم، نزل أحدهم وصار في منتصف الطريق. سلمت عليهم محاولاً أن أبدو طبيعياً، فردّوا السلام ببرود. اقترب مني ذلك الشرطي الذي نزل من السيارة قائلاً:
- أخي، ممكن هويتك الشخصية؟
أخرجت هويتي وسلمتها له، نظر إليها وهو يسألني:
- أين تذهب في مثل هذه الساعة من الفجر؟
قلتُ:
- أنا خباز، أعمل في الفرن القريب، وهذا هو وقت عملي اليومي، الأخوة في سيطرة الحرس الوطني يعرفوني، أنا أذهب وأجيء في هذا الطريق يومياً.
نظر الشرطي إليّ بتمعن وابتسم، ثم قال لي:
- لحظة، أخي، على السيد الضابط أن يقرر في أمرك.
قال ذلك وذهب حاملاً هويتي إلى الضابط الذي كان جالساً في السيارة. تحدثا بهدوء، لم أسمع شيئاً مما قالا، لكني رأيت الشرطي يقترب مني باسماً ويقول:
- أخي، هناك اشتباه بسيط في اسمك، يمكنك أن تتفضل معنا إلى المركز القريب، الأمر لا يطول سوى بضع دقائق، إنها إجراءات روتينية بسيطة ثم

تذهب لعملك، بل نحن سنوصلك إلى الفرن.
ارتبكت حينها، لكني لم أشكّ في شيء لأن الشرطي تحدث معي بود وبثقة لا تدع أي مجال للشك في صدق ما يقول. وبرغم ذلك قلت له:
- لكني سأتأخر عن العمل، هل يمكن أن نذهب أولاً إلى الفرن وأخبرهم بأني ذاهب معكم كي يقوموا هم ببقية العمل لحين عودتي؟
فقال السائق الذي كان يسمع حوارنا قائلاً من مكانه خلف المقود:
- يا أخي لماذا كل هذا اللف والدوران.. الوقت الذي يستغرقنا في الذهاب إلى الفرن سيكون أطول وأكثر من ذهابنا إلى المركز، وإنجازنا لكل الأمور، وعودتنا أيضاً، فلا تطل الأمر وهيّا معنا لتستفيد من الوقت، وإذا ما تأخرنا فسأقوم أنا شخصياً لإيصالك إلى الفرن، هل يرضيك هذا؟
لم يكن أمامي أي مجال للرفض، فصعدت معهم. حين وصلنا المركز أدخلوني إلى غرفة فارغة فيها بعض الكراسي، وذهبوا. رأيت الضابط الذي لم يتحدث طوال الطريق، يدخل إلى إحدى الغرف، ثم يخرج منها، ويمضي دون أن ينظر إليّ، بل حتى الشرطيان اختفيا والسائق الذي وعدني بأن يرجعني بنفسه إلى الفرن اختفى أيضاً.
كنت وحدي في الغرفة، قلقاً، وحيداً، مرتبكاً من كل ما حصل لي. فجأة دخل عليّ شرطي آخر، من غير الذين جاءوا بي إلى المركز، فقال لي بصوت في نبرة عدائية:
- أنت آدم صاحب فندق السعادة؟
فوجئت، فقلت له بارتباك:
- عفواً، أنا آدم الخباز ولست صاحب فندق السعادة.
- لا أعرف.. تعالَ إلى العقيد..
شعرت بشيء من الراحة، فقد تبيّن الأمر إذاً، إنه ليس أكثر من اشتباه في الأسماء والشخوص، فتبعته، فأدخلني إلى الغرفة التي دخلها الضابط أول ما وصلنا إلى المركز وخرج.
ما أن دخلت ورأيت العقيد على كرسيه وراء مكتبه العريض حتى طرأ على ذهني سؤال ساذج لا يمكن أن يطرأ في ذهن أحد وهو في مثل حالتي، ألا وهو: كيف دخل هذا الشخص من خلال هذا الباب إلى الغرفة. كان جبلاً من الشحم، لا ترى من وجهه سوى ثقبين يمكن أن تقول إنهما مكان لعينيه، وفم غطته طبقات من الشحم، لكنه ما أن نظر إليّ حتى شعرت بالارتعاش. عيناه كانتا تشعان حقداً أصفر، حقداً مريضاً، فشعرت بالرعب يسري في كل مسامات جسدي، وعرفت من لحظتها بأني قد ضعت،

ولا أحد يستطيع أن يخلصني من براثن هذا العميد الحقود.
جاءني صوته رفيعاً، حقوداً، سائلاً:
- هل أنت آدم صاحب فندق السعادة؟
حاولت الإجابة فلم أستطع، وبالكاد خرج صوت متحشرج من فمي:
- لا سيدي.. أنا آدم الخباز.
فقال:
- لا.. أنت آدم صاحب فندق السعادة.. أنت تكذب.
توسلت إليه بصوت أشبه بالبكاء، وبشجاعة نادرة:
- سيدي العقيد.. الله يحفظك ويخليك. أنا آدم الخباز، أعمل في فندق الأمير الحديث، يمكن أن تسألوا صاحب الفرن عني.. اسمه الحاج آدم أبو الكرامات.. اسالوه.. أنا آدم الخباز.
بدا لي أن العقيد لا يريد الاقتناع بأني آدم الخباز، لأنه لم ينظر إليّ أصلاً، وإنما كان منشغلاً بالأوراق التي أمامه أثناء توسلي له.
فجأة، شعرت بالرحمة الإلهية تهبط عليّ حينما دخل الشرطي وقدم التحية قائلاً:
- سيدي.. السيد الضابط آدم أبو المحاسن يسأل عن آدم الخباز، إن كنتم، سيادتكم، قد قررتم شيئاً بخصوصه؟
أحسست بأن الشرطي الذي أعطيته هويتي كان صادقاً في قوله بأن ثمة اشتباهاً في الأسماء لا أكثر، لكني كنت مخطئاً، وقد اكتشفت ذلك في ما بعد، إذ قال العقيد، بترهل واسترخاء:
- قل للضابط بأن يطلق سراح آدم الخباز، فالذي جاءوا به الآن هو الإرهابي آدم صاحب فندق السعادة. خذوه.
كان الحارس آدم يستمع، شعر بإشفاق على هذا الخباز البائس الذي لم يحالفه الحظ بأن يثبت شخصيته وهويته الحقيقية. ويبدو أن زملاء آدم الخباز الذين يشاركونه غرفته تعاطفوا معه أيضاً، وكانوا متشوقين لمعرفة مصيره الذي ساقه إليهم، فسمع آدم الحارس صوت أحدهم يسأله:
- ومَن هو آدم الخباز، الآخر، أو آدم صاحب فندق السعادة؟
استمع الحارس آدم إلى الخباز آدم وهو يطلق حسرة عميقة من أعماق صدره، قائلاً:
- أخذوني مباشرة إلى الزنزانة، وهناك وجدت أربعة آخرين. بدا لي أن كلاً منهم لديه قصة شبيهة بقصتي، وعرفت منهم، بأن كان في هذه الزنزانة خمسة إرهابيين، من عتاة القتلة، من مختلف محافظات العراق. وجميعهم

قد تمّت محاكمتهم وصدرت أحكام الإعدام بهم، لكن لم ينفذ بهم الحكم، ولكونهم من أصحاب العلاقات والمال والنفوذ، فقد استطاعوا سواء من خلالهم أو من خلال أهليهم، أو الجهات التي ينتمون إليها، بشراء ذمم العقيد والضابط وبعض المسؤولين، بحيث كل يوم تذهب دورية الشرطة لإلقاء القبض على أي عابر سبيل وحمله إلى هنا وإبداله بأحد هؤلاء المحكومين بالإعدام، ولم ينفذ الحكم بهم بانتظار وصول عابر السبيل الخامس الذي سيتم اعتقاله وإعدامه بدل الإرهابي آدم صاحب فندق السعادة، الذي خرج قبل قليل من حبسي في الزنزانة باعتباره آدم الخباز واعتباري آدم صاحب فندق السعادة.

عرفت من بقية أفراد الزنزانة بأن الشخص الذي المدعو آدم صاحب فندق السعادة كان يأوي الإرهابيين في فندقه، بل وهناك كان الإرهابيون يعدّون الألغام، ويذبحون الضحايا في حمامات الغرف وفي الطابق تحت الأرضي للفندق، لكنه كان يغطي على أعماله بتقديم الخدمات الترفيهية للمسؤولين، وأنه أيضاً كان يأتي بالفتيات بل حتى الفتيان إلى العميد وبعض ضباط هذا المركز الذي اعتقلوني فيه.

طبعاً كل من المعتقلين البقية روى لي قصته، وطريقة إلقاء القبض عليه، والتي لا تختلف إلا في الاسم وبعض التفاصيل الصغيرة، ومكان الاعتقال، عن قصة اعتقالي.

في ذلك الفجر نفسه، أخذونا جميعاً إلى قبو في أسفل بناية مهدمة ومهجورة، وهناك، وبلا رحمة، وبدون أن يتركوا لنا فرصة أن نتشهد قبل الموت، أطلقوا النار علينا، باعتبارنا إرهابيين وقتلة ومحكوماً علينا بالإعدام، بل وإننا شخصيات أخرى غير شخصياتنا الحقيقية، ولكي لا يتم تسليم الجثث المعنية إلى أهليها، لأنه لم يعدم منهم أي شخص، فقد تمّ نقلنا إلى هذا المكان، ووزّعونا على الغرف والزنزانات هنا، وأنا صرت في هذه الزنزانة.

شعر الحارس آدم بالخوف، فهذا الخباز هو ميت إذن؟ لكن كيف يتحدث؟ ربما هو لم يسمع نهاية القصة جيداً؟ وبرغم ذلك شعر بالأسى، والشفقة على آدم الخباز، بل إنه من شدة تفاعله مع مأساته، نسي المهمة التي جاء من أجلها، وهي استكشاف الطابق الأعلى، كما راودته الرغبة بمواصلة الاستماع لبقية الحوار، حيث كان أحد الموجودين في تلك الغرفة، يريد أن يتحدث، لكنه سمعه يسأل:

- كل هذا يحدث في هذا الزمن الجديد؟ لقد كنت أعتقد بأن ذلك

يحدث في زمن النظام السابق، الذي كانت تحصل فيه مثل هذه القصص، لا سيما في التسعينات، بعد الانتفاضة ضد دكتاتور البلاد. لم أكن أتصور بأن هذا يحدث الآن، وفي الزمن الذي جاء بالضحايا كي يستلموا الحكم؟ لكني، لو أردتم الحقيقة، لا أستغرب ذلك، هل تدرون لماذا؟

- لماذا؟ جاء صوت آدم الخباز، وهو يسأل.

- لأني أنا المدعو آدم كاشف الليل، سليل عائلة كريمة مشهود لها بالتقوى، وأحد المشاركين في الانتفاضة المباركة، التي اجتاحت البلاد في بداية التسعينات، قد شهدت العجب العجاب مما يجري في هذا الزمان الذي جاء بأخوتي إلى الحكم، حتى صرت أتمنّى لو يمكننا الخروج من هذه الزنزانة لنواصل النضال ضد هؤلاء الذين تاجروا بنا، ولنصحح المسار. لكن كما ترون أنهم يلقون بنا في النسيان، بل لا أحد يسأل عني، فأنا هنا منذ سنوات.

لقد تمّ إلقاء القبض عليّ، مع بعض أخوتي المؤمنين الذين حملوا السلاح معي في مواجهة طغاة العصر. كانت أنباء الانتفاضة التي بدأها الجنود المنسحبون من الكويت تصل إلينا، فسمعنا عن انتفاضة البصرة والناصرية، والديوانية، والسماوة، والكوت، والعمارة، لذا قمنا، بعد التوكل على الله، بالانتفاضة ضد الطغاة أيضاً، فحاصرنا مقرات الحزب الحاكم ورجمناها بالقاذفات. قتل الكثير من أزلام الحزب وأجهزة المخابرات، وتمّت السيطرة على المحافظة بالكامل، لكن لا نعرف حينها ما الذي حدث، وكيف استرد النظام قوته؟ بعد ذلك عرفنا أن الطاغية استسلم للقوات الأجنبية، ووقع معاهدة استسلام، فقط من أجل أن يبقى على كرسيه، المهم، واجهنا هجوماً مضاداً من السلطة.

هربت إلى الأهوار القريبة من محافظتنا. لم أكن وحدي، هناك رأيت المئات من الأبطال الذين شاركوا بالانتفاضة، لكنهم هربوا مثلي إلى تلك الأماكن. ولا أطيل عليكم، بعضنا ذهب إلى بلد مجاور، لكنا آثرنا البقاء والاستمرار بقتال أو انتظار الفرج.

بعد سنوات تسللت إلى البصرة. عملت هناك إسكافياً، ثم حائكاً، ثم خياطاً، وبائع للشاي في المسطر، بائع كبة، ومهناً أخرى، رغم أني بالأساس مدرّس للكيمياء في ثانوية ما في محافظتي.

في البصرة تعرّفت على عائلات كريمة، طيبة، كثيرة، بعضها كانت لديه علاقة بالنظام والحزب الحاكم ومؤسساته، لكنهم كانوا لا يؤذون أحداً، بل على العكس كانوا يساعدون بعض العائلات التي تقرر السلطة اعتقال أبنائهم

الذين ينتمون سراً للمعارضة، سواء كانوا متدينين أم شيوعيين.
أذكر ليلة وصول خبر اغتيال أحد المراجع الدينية مع أبنائه. خرجت مظاهرة احتجاجية في البصرة. تمّ اعتقال أكثر من أربعمائة شخص تمّ إعدامهم فوراً، بل إن بعض الجثث ألقيت في الطريق أمام أبواب أهاليهم، ومنعوا الآباء والأمهات من دفنهم، بل لم يتجرأ أحد أن يقوم بذلك، لأن الإعدام لكل من يقترب من الجثث، بل الإعدام لجميع أفراد العائلة التي ينتمي إليها ذلك الذي تجرأ على الاقتراب من الجثث. هل تصدقون أن الكلاب كانت تأكل من جثث الأبناء أمام أنظار الآباء والأمهات المنكوبين بإعدام فلذات قلوبهم؟
أذكر جيداً أن السلطة لم تكتفِ بإعدام الشباب، من أبناء وأزواج فقط، وإنما أصدرت أمراً سرياً بإلقاء القبض على النساء، أخوات وبنات المعدومين من الرجال، وتترك المرأة المتزوجة، وكانت التعليمات تؤكد على اغتصابهن، وإزالة بكارتهن، ومعاقبة هذه العائلات بتكليلهم بالعار، لكني أذكر جيداً، بأن أحد الضباط العاملين في الجهاز السري للحكومة، أبلغ أهالي العائلات المنكوبة بالقرار، ودعاهم إلى الفرار، وهذا ما تمّ، حيث هربت مئات الفتيات إلى محافظات أخرى، أو هربن إلى عشائرهن في الريف، ومنهن هاجرن إلى البلد المجاور.
حينها صارت البصرة ضيقة عليّ، وخطرة بالنسبة لي، تسللت إلى محافظتي ثانية، لا سيما وأن أحوال البلاد كانت مفككة، بحيث يمكن الزوغان من براثن السلطة. لكن لم أكن أعرف أني أتوجّه لمواجهة قدري.
هناك في محافظتي، سكنت مع صديق لي، من عائلة متدينة. كان صديقي يعيش مع أخته، وهي فتاة جميلة، ومهذبة، وملتزمة دينياً، ولم نتأخر كثيراً، وبدون رسميات كثيرة، زوّجني صديقي أخته. لكن ظروف عملنا السري لم تتح لنا الحياة المستقرة الآمنة، لذا كنا، أنا وأخو زوجتي نتنقل كثيراً.
بعد سنة تقريباً، رزقنا أنا وزوجتي بطفلة رائعة الجمال أسميتها حواء، تكريماً لأمنا حواء أم البشر، لكني مع الأسف لم أستمر بالعيش لأراها تكبر أمام عيني، ففي إحدى المرات التي كنت أزور فيها زوجتي، وكان أخوها عندنا في البيت أيضاً، تمّت مهاجمتنا نتيجة معلومات، لا نعرف كيف وصلت إلى السلطة، لأننا كنا ندخل المدينة سراً ونخرج سراً. المهم، تمّ إلقاء القبض علينا. ولم يطل الأمر كثيراً، فقد مات أخو زوجتي تحت التعذيب، بينما أنا نقلت إلى سجن أبي غريب.
هناك قابلت ضابطاً من محافظتي، ما زلت أذكر أسمه، آدم أبو المجد.

كان أبو المجد يقوم بتعذيبي يومياً، بل أحياناً يقوم بذلك مرات عدة في اليوم الواحد. كان لا يكتفي بالتعذيب وإنما يوجِّه الشتائم لي، ويسيء لسمعة زوجتي.
هذا الضابط نفسه جاء ذات فجر، وأخذني مع بعض الأخوة، إلى سرداب، أشبه بمخازن فارغة للعتاد العسكري، وهناك أطلق الرصاص علينا. وحده كان وليس معه أي من فريق الإعدام الاعتيادي، وكأنه كان ينتقم منا شخصياً، ولكي يخفي هذا الضابط المجزرة التي اقترفها، أخذ يوزع جثثنا على المشارح، واستقرّ بي المقام هنا منذ سنوات، لا أحد يسأل عني، ولا جهة فكرت بالاستفسار عن هويتي.
ما أصابني بالخيبة والأسى والحسرة، ولا أريد أن أقول الندم، لأنني، والآلاف الذي ضحوا بأنفسهم، قمنا بذلك عن إيمان وقناعة، لكن كان معنا، قبل أن يأتوا بنا إلى هنا، شاب من أهالي الكوت، شاب في بداية العشرينات من عمره، اسمه كما أذكر آدم النمر، كان يعمل في مديرية الصحة بالمحافظة، وكانت جريمته أنه يذهب إلى الجامع القريب من بيتهم، وأنه يزور العوائل الفقيرة ليحمل لهم بعض الدواء، فتمّ اعتقاله وتعذيبه، وإعدامه.
الغريب أن أبناء عمومة الفتى آدم النمر، بعد أن عرفوا باعتقاله، وإعدامه، ذهبوا جميعهم إلى دائرة الأمن والمخابرات وقدموا براءة دم منه. والمضحك المبكي في الأمر أن رجال الأمن حققوا معهم أيضاً، مستفسرين عن مصدر المعلومات التي أكدت لهم بأنه أعدم، فأخذوا يختلقون القصص حول ابن عمهم، زاعمين أنه مخرب، وأنهم لا يعرفون أنه أُعدم لكنهم أرادوا أن يثبتوا ولاءهم للحكومة. ومن مهازل هذا الزمان، وسخرية الأقدار فيه، أن أبناء العمومة هؤلاء، وضعوا صورة ابن العم الشهيد على أبوابهم بعد سقوط النظام، وصاروا يفتخرون بأن لديهم شهيداً.
وقد روى لي قصته بكاملها، وتبيّن لي أن الضابط آدم أبو المجد قد تمّت ترقيته، وهو الذي قام بتعذيب ذلك الفتى وإعدامه أيضاً. لكن ما أثارني أن هذا الفتى كان يتحدث عن أخ له، كان شيوعياً، وهرب إلى إيران، واستقرت أحواله بعد، حل وترحال، في الدانمارك، وهو شاعر وكاتب معروف، وأن هذا الفتى الشهيد يأمل أن يقوم أخوه الكاتب بكتابة رواية عن ألمه ومعاناته، ويكشف عن حجم الضيم والظلم والخديعة الذي تعرّض هو له، ويكتب عن هذا القاتل آدم أبو المجد.
هذا الشاب القتيل، آدم النمر، من أهالي الكوت، قد تمّ اعتقاله مرة أخرى

في هذه الزنزانة ونُقل إلى جهة مجهولة نتيجة محاولته قتل إحدى الجثث، فقبل سنتين فقط، جاءوا إلينا بجثة رجل في الخمسين من العمر، قال لنا إنه أخ المناضل البطل آدم أبو المجد، الذي يقود لواء لمحاربة الإرهابيين وقتلة أبناء الشعب، وأن الإرهابيين انتقموا بقتله هو لأنهم لا يستطيعون الوصول لأخيه الذي صار من رجال الحكم اليوم.

حينها هجم الفتى الشهيد آدم النمر على أخي القاتل، المناضل البطل والقائد الجديد، قائد لواء محاربة الإرهاب، وأحد رجال الحكم الجديد، وأراد أن يقطع رأسه، وكاد يحقق ذلك، لكن فجأة دخل علينا رجال أنيقون، ومراتب مختلفة من الحرس الوطني، أخذوا الفتى آدم النمر، متهمين إياه بالإرهاب، وأعتقد أنهم قرروا تقطيعه، فأقصى ما يمكن أن تعاقب الجثة به هو تقطيعها إلى أوصال، أو فصل الرأس عن الجسد.

كان آدم يشعر بأنه مشوش، فهنا كما يبدو غرفة وليست قاعة لحفظ الجثث، ولا قاعة للتشريح، إذن، ما هذا الذي يسمعه؟ هل هؤلاء أحياء أو هم قتلى وشهداء كما يدعون؟ وفكّر مع نفسه، ربما لأنهم شهداء فهم أحياء؟ لكنه أجاب على نفسه بنفسه في أن الشهداء هم أحياء عند ربهم يرزقون، وليسوا أحياءَ في المشرحة؟ ثم إذا ما رواه هؤلاء صحيحاً، كيف له أن يعيش في مثل هذه البلاد، ولا يعرف ما يجري فيها؟ كيف ينتمي لبلاد صار قتلة الأمس فيها أبطال اليوم؟

التفت إلى الساعة الإلكترونية التي تزيّن الواجهة المقابلة له. كانت تشير إلى الواحدة والربع بعد منتصف الليل، لكن بالرغم من كل ما سمعه، فإنه لم يكتشف أين هو؟ فجأة سمع طرقاً على الجدار. خاف. أنصت قليلاً واضعاً رأسه على الجدار، فسمع صوتاً نسائياً يسأل:

- أنتم.. يا أخوتي.. أنتم يا من هناك في الزنزانة المجاورة، هل تسمعونني؟

انتبه الحارس آدم بأن خلفه زنزانة أخرى، فيها امرأة، وهي لا تناديه هو، وإنما تنادي الذين كانوا يتحدثون قبل قليل، آدم الخباز، وآدم كاشف الليل.

سمع آدم الخباز يجيبها قائلاً:

- نعم نسمعك. مَن أنت؟
- أنا حواء المفتي.
- هل أنت وحدك هناك؟
- نعم، أنا هنا وحدي لحدّ الآن.
- هل تحتاجين شيئاً؟
- لا.. لكني أردت أن أقول للأخ آدم كاشف الليل بأني أعرف عائلته..

أقصد أعرف ابنته ربما..
فجأة جاء صوت آدم كاشف الليل، متلهفاً، وهو يسألها:
- كيف، هل تعرفين زوجتي وابنتي؟
- ابنتك صارت مذيعة معروفة..
- مذيعة؟
- نعم مذيعة معروفة اسمها حواء البغدادي.
- لكن يفترض أن تحمل لقب حواء كاشف الليل وليس البغدادي، فنحن من أهل الحلة ولسنا من بغداد.
- لا أعرف، لكنها مرة تحدثت عن أبيها وخالها، وأن خالها مات تحت التعذيب وتمّ إعدام والدها.. وقد استمعت لك وأنت تروي قصتك، فظننت أنها هي.
- كم عمرها؟
- أعتقد أنها في الثامنة عشرة أو العشرين.
- لا ليست هي، من المستحيل لابنتي أن تكون مذيعة؟ هذا مستحيل، فأمها امرأة متدينة ومن عائلة متدينة، ويستحيل أن تسمح بأن تكون ابنتنا مذيعة.
- إذن أنا آسفة؟
- لكن ما قصتك أنت؟ يبدو أنك من أبناء هذا الزمان وهذا العصر الجديد؟
- نعم أنا حواء المفتي. كنت سجينة سياسية في زمن الطاغية، لأن زوجي أُعدم كونه شيوعياً، وأخي أُعدم كونه إسلامياً، وقد اعتقلت باعتباري من أقرباء الدرجة الأولى للمجرمين المعادين للسلطة والحزب الحاكم، لكن في الأوراق الرسمية لاعتقالي كتبوا أن تهمتي هي ممارسة الدعارة، وقد بقيت في السجن لسنوات طوال.
- حينما تمّ اعتقالي كانت لديّ طفلة صغيرة، لا أعرف مصيرها، رغم أني كنت خارج السجن، بعدما جاء الأجانب بجيوشهم الجرارة وأزالوا النظام. لكني رغم ذلك لم أعثر على طفلتي.
- كيف لم تعثري على طفلتك؟
- ببساطة، لم أعثر عليها. سألت عن جيراننا، حينما اعتقلت قالوا لي بأن الأمن أخذوها، بل لم أعثر على ابني أيضاً.
- ابنك؟ قلت إن لديك طفلة واحدة فقط؟
- نعم. هذا صحيح. حينما تمّ اعتقالي كان لديّ طفلة من زوجي، لكن في

السجن تمّ اغتصابي لمرات ومرات، بل صرت عشيقة أحد ضباط السجن، عشيقة، بمعنى أنه كان قد خصّني له فقط، وحملت منه، وولدت في السجن ابناً، لكنه أخذه مني. بعد ذلك حملت لأكثر من مرة، وكنت أجهض نفسي بوسائل مختلفة. حين خرجت من السجن عرفت مكانه وذهبت إليه مطالبة بابني، لكنه اليوم صار ذا رتبة عالية في الداخلية، وصار النظام الجديد لا يستغني عن خدماته، وهو الذي أرسلني إلى هنا. المهم، لقد اختلطت الأمور، الكل صار لديهم شهداء، والكل صار سجيناً سياسياً، حتى صار المرء يعتقد بأنه لم يبقَ في البلاد من لم يدخل السجن سوى الطاغية وابنيه؟ لأكمل لكم الحكاية.

كانت بعض المنظمات العالمية تزورنا، بل وبعض المنظمات الحقوقية أيضاً، وتذكرت ذلك وأنا أستمع للأخ آدم كاشف الليل حينما تحدث عن الضابط القاتل آدم أبو المجد، فقد كانت تزورنا محامية عراقية، ترافق الوفود الأجنبية التي تزور سجن النساء، وكانت هذه المحامية الشابة تحمل صورة الطاغية على صدرها. أتدرون أنها الآن شخصية سياسية كبيرة في الحكومة؟

- وكيف وصلت إلى هنا؟ يفترض أن تكرمي كونك من السجناء، وأختاً لشهيد وزوجة لشهيد؟

- هل تعرف أنني بقيت لفترة طويلة أدور في دوائر الدولة لأثبت أنني لست عاهرة، وإنما سجينة سياسية وأخت لشهيد وزوجة لشهيد؟ هل تعرف أن هذه المحامية التي كانت تضع صورة الطاغية على صدرها حينما تزورنا، حينما قابلتني ذات مرة، بعد رحيل الطاغية وإعدامه طبعاً، أخبرت عني بأني كنت أتعاون مع النظام المقبور وأني كنت أكتب التقارير ضدها؟ هذه المرأة صارت اليوم مسؤولة كبيرة في الحكومة، وإنها الآن تأمر وتنهي، بل وصارت تتحدث باسم النساء العراقيات، وتفصل في الحديث عن الظلم الذي تعرضن له.

- لكنك لم تخبرينا كيف وصلت إلى هنا بعد أن صرت حرة وأُطلق سراحك من السجن؟

- مثلما وصلتم أنتم، لكن بطريق آخر. فكما أخبرتكم أني لم أعثر على ابنتي، لكنني عثرت على ابني، وعلى الضابط الذي كنت عشيقته، والذي هو والده. لقد رأيته على شاشة التلفزيون يروي عن مآسي السجناء في العصر المظلم السابق، وكيف أنه كان يهرّب السجناء، ويأوي السجينات، وأنه كان ينقلهن إلى المستشفيات بحجة المرض، ويهربهن من هناك بمساعدة آخرين، دافعاً الكثير من أمواله، وأنه.. وأنه، وقرأت اللقب الذي يحمله الآن، واسمه

الكامل، وأنه مسؤول كبير في الداخلية.
طبعاً لم أصبر، ذهبت في اليوم الثاني إلى الداخلية، وبشق الأنفس عرفت مكان عمله وتواجده، ولم يكن الأمر سهلاً أبداً لأني حينما سألت عنه، تمّ التحقيق معي، خوفاً عليه، فشرحت لهم أني كنت سجينة، وكان هو قد ساعدني، وأني أريد رؤيته لأشكره، وذرفت الدموع، وقدمت لهم هويتي وأوراقي الحقيقية التي تثبت أني كنت سجينة سياسية فعلاً، إلى أن صدقوني. المهم، ذهبت إلى مكانه، وطلبت مقابلته، وبعد سين وجيم، وتفتيش صارم، سمحوا لي بمقابلته. طبعاً هو لم يتوقع رؤيتي، وربما كان قد نسيني وإلا ما سمح لي بمقابلته، لكنه ما أن رآني داخلة عليه، حتى تأهب وأخذ سلاحه بيده.
بقينا للحظات ينظر أحدنا إلى الآخر. لقد عرفني فوراً، وربما ارتعب لأني أعرفه جيداً، وأعرف تاريخه، ووجهه الحقيقي، لكنه، ولا أدري لماذا، استرخى قليلاً، ربما تذكر الليالي واللحظات التي كان بها معي، ولا أخفيكم فقد كان معجباً بي جداً، وكان يكنّ لي مودة لا يستطيع إعلانها.
بقينا للحظات ينظر أحدنا إلى الآخر، ثم التفّ من وراء كرسيه، بعد أن وضع المسدس على طاولة مكتبه، وتقدم نحوي قائلاً، بشكل رسمي بارد، رغم أن نظراته كانت تستكشف جسدي:
- هذه أنت؟ كيف حالك؟
- الحمد لله.
قاطعني سائلاً، وكأنه يريد إنهاء المقابلة بأسرع ما يمكن:
- هل تحتاجين لشيء، للمال، أو لإنجاز معاملة، أو لعمل؟
- جئت أسأل عن ابني.
- ابنك؟ أي ابن؟ أين هو؟ ما اسمه؟ كي نستطيع مساعدتك؟
- ابني الذي هو ابنك أيضاً؟
- اخرسي، أي ابن الذي هو ابنك وابني؟
- ابني الذي ولدته في السجن منك؟ ابني الذي أخذته مني؟
ارتبك من صوتي الذي بدا يعلو قليلاً، فقال:
- اسمعي جيداً، يمكنني الآن أن أزجّ بك في السجن إذا ما واصلت حديثك بهذا الصدد، هل تفهمين؟ أنا لا أعرفك أصلاً؟ ولكني رأفة بك يمكنني أن أبحث لك عن عمل.
- أنا لا أبحث عن عمل، وإنما أريد رؤية ابني.
ولا أدري كيف طرأ في ذهني أن الصورة المؤطرة التي على مكتبه هي

لابني، فذهبت مسرعة لرؤيتها، وفعلاً رأيت صورة لصبي جميل، لكن إلى جانبه تقف امرأة أخرى. التفت إليه صارخة:

- هذا ابني أليس كذلك؟

صمت للحظات، رأيت الصراع الذي يتأجج في أعماقه، لكنه سرعان ما سيطر على نفسه وقال بلهجة عصبية آمرة:

- كفي عن هذيانك هذا وإلا ستنتهين، هل فهمتِ؟

ما أن سمعت منه تهديده هذا، وكانت صورة ابني قد فجرت براكين الألم في أعماقي، ففقدت هدوئي وأخذت أصرخ عالياً:

- ماذا، أتهددني؟ ماذا تريد أكثر، أخذت ابني وتريد قتلي؟ سأفضحك وأفضح أمثالك، سأفضح هذا المسؤول الذي كان يقضي لياليه باغتصاب السجينات السياسيات، بينما اليوم هو حامي للعدالة، سأفضح تاريخك الأسود.

لم أستطع أن أواصل كلامي، إذ تلقيت صفعة شلّت فكي، وفي لحظة عاد لمكتبه وضغط على جرس هناك، فدخل ضابط عسكري قدّم التحية له، وسمع منه غاضباً:

- خذوا هذه المجنونة من هنا، وأخرجوها من الدائرة، وإذا ما عادت ثانية فاعتقلوها وألقوا بها في السجن، مفهوم؟

- مفهوم سيدي.

وسحبني الضابط من يدي، ومضى بي خارجاً. لم أكن أستطع أن أقول شيئاً، كانت ضربته قوية جداً، ومفاجئة، لكني، وأنا في الطريق، صرت أتوسل للضابط قائلة:

- صدقني يا أخي أنه أخذ ابني مني. أنا كنت سجينة سياسية، وكان هو ضابطاً للسجن، وقد كان ينام معي، وحبلت وولدت ابناً أخذه مني، أنا لا أريد شيئاً، فقط جئت أسأل عنه، لكنه يتهمني بالجنون. أنا أعرفه جيداً. لقد كان يغتصب السجينات السياسيات كلّ ليلة.

التفت الضابط لي وقال بلهجة فيها مواساة وتحذير:

- اسمعيني يا أختي، لا أدري عن أي شيء تتحدثين، وسواء كان ما تقولينه صحيحاً أم لا، فنصيحتي لك أن تنسي كل ذلك، ابنك، وعالم السجن، وما كان يفعله هناك، فلست ممن يستطيع مواجهته. اسمعيني إذا أردت البقاء حية. قادتنا الجدد الذي جاء معظمهم من الخارج لا يعرفون شيئاً عن الذين كانوا بقوا هنا، فهم يثقون بكل من هب ودب، نحن نعرف الكثير، لكننا نخاف أن نتحدث، فهؤلاء لا يترددون من إبادتنا مع

عوائلنا، وإلقاء التهمة على الإرهابيين. اذهبي لحالك، فأنت أثرت على نفسك اليوم عاصفة لا أعتقد أنها سوف تنتهي بسلام.. اختفي من أمام عينيه.

- لا.. أنا زوجة شهيد وأخت لشهيد، وإذا ما كان زوجي شيوعياً، ولا حظ لجماعته في الحكم، فإن أخي من الإسلاميين، وهو شهيد، وأنا كنت سجينة سياسية.

- يا أختي.. افهميني جيداً.. أنصحك بالابتعاد عن هؤلاء.. فحتى لو صدقك بعض الشرفاء، إلا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

حينما صرت في الشارع كنت كالمجنونة فعلاً. أهذا هو الحال الذي كان يحلم به أخوتي وزوجي وبقية الشهداء حينما ضحوا بأنفسهم. أهذه هي البلاد التي كانوا يحلمون بها؟ لا أدري ما الذي جرى بعد ذلك، لكني، صرت أحسّ بأني مراقبة، وهناك أشباح تظهر وتختفي من أمامي حينما أتنقل.

وذات يوم كنت في طريقي إلى إحدى الجمعيات النسائية التي تقودها بعض الأخوات المجاهدات، من زوجات الشهداء، وأخواتهم، وقبل أن أصل إلى مقر الجمعية، وعند منعطف الشارع، اصطفت سيارة بيضاء جانبي، سيارة من نوع البيجو، وقفز منها اثنان. أمسكا بي وأدخلاني إليها عنوة، وانطلقوا بي إلى مكان مجهول.

أخذوني إلى مكان خارج بغداد، لأن الطريق كان طويلاً، وكنت معصوبة العينين، فلم أعرف أي اتجاه سلكوا. وأخيراً توقفت السيارة، وأخرجوني منها، وأدخلوني إلى مكان ما، ثم رفعوا العصابة السوداء عن عيني، فوجدت نفسي في غرفة مؤثثة بشكل جيد، وبدا المكان وكأنه شقة سكنية، ورأيت أمامي رجلين أنيقين، ووسيمي الوجه، بلحى خفيفة. ابتسما لي وقالا لي أهلاً وسهلاً بك. ثم أخذا يطرحان الأسئلة عليّ، عن تفاصيل حياتي كلها، وانتهوا بالسؤال عن سبب زيارتي للداخلية قبل أيام، فشرحت لهم كل شيء.

الغريب أنهما لم يفاجأ أي منهما حينما أخبرتهما عنه، وعن اغتصابه للسجينات، وقصتي معه. وبعد أن انتهوا من التحقيق معي خرجا. ويبدو أنهما غادرا المكان.

بعد ذلك دخل عليّ اثنان تبدو ملامح الشر على وجهيهما ونظراتهما، ولم ينتظرا طويلاً، إذ أخذاني من مكاني وأدخلاني غرفة يتوسطها سرير نوم عريض، وبدون أي كلام، ألقياني على السرير، واغتصباني معاً، كل منهما كان منشغلاً بقسم من جسدي.

الصراخ، الشتائم، التهديد، التوسل، كل ذلك لم ينفع معهما. وحينما انتهيا

مني سحلاني إلى غرفة الحمام، وهناك أطلق واحد منهما رصاصة على صدري. ثم لفّاني وأتيا بي إلى هنا.

- ومن كان هذين اللذين حققا معك؟

- لا أعرفهما، لكنهما كانا في غاية التهذيب، وأكدا بأن هناك اختلاطاً في الأشياء، وأنهما سيصححان الوضع.

- أي وضع سيصححان؟ هل صدقتهما؟

- لِمَ لا ؟ لم أرَ منهما ما يثير الشبهة أو الدناءة التي حصلت معي بعدهما.

- ومن كان هذين اللذين قاما باغتصابك وقتلك؟

- لا أعرفهما؟ لكن كان أحدهما وهو يغتصبني، يصرخ بي: هذا جزاء من لا تسمع النصيحة.

- أية نصيحة؟

- لا أعرف؟ فالكل ينصح في هذا الزمان. حتى في الزمن السابق كان كل من يقوم باغتصابي ينصحني بالسكوت وإلا فستكون العاقبة وخيمة، وتكون نهايتي سوداء، وفي هذا الزمان الكل ينصح، حتى إن التلفزيون صار وسيلة للنصيحة. ثم..

لم يستطع الحارس آدم أن يسمع بقية قصة هذه المرأة، فقد انتبه إلى أن أحد الأبواب البعيدة قد فُتح وخرج الرجال الثلاثة منه، ومعهم المساعد. لم يكن آدم الحارس يعرف ماذا يفعل. زحف راجعاً بكل قوته إلى الدرج، وألقى بنفسه على درجات السلم، وزحف نازلاً بالتزحلق على الدرجات التي كانت ركبتاه ترتطمان بها بقوة. وحين وصل إلى منتصف السلم وصار بعيداً عن مدى بصر القادمين، ركض بأقصى ما يمكنه من سرعة، هابطاً السلم إلى الطابق تحت الأرضي حيث غرفته، فدخلها مسرعاً، وأغلق على نفسه بالمفتاح.

ظل جالساً على الصوفة لدقائق. فكّر في كل ما رآه، وسمعه؟ ما هو هذا المكان الذي رآه؟ أين يقع؟ بالتأكيد أنه ليس الطابق الأعلى؟ لكنه رأى مساعد الطبيب والرجال الثلاثة هناك؟

أحسّ بالارتباك والضياع أكثر. أحسّ بأن المساعد والرجال الثلاثة لم يروه، فقد كانوا بعيدين عنه، والطابق يلفّه الظلام. أخذ الريموت كونترول وضغط عليه، فأضيئت شاشة التلفزيون. تنقل بين القنوات مستقراً على القناة التي تبثّ أفلاماً بالعربية.

(6)

الضيوف

كان الظلام يخيّم على بغداد في تلك الساعة من الليل. ليل ثقيل، ممطر، يخيّم على بناية المشرحة التي بدت وكأنها قلعة من العصور الوسطى أو بيت للأشباح.

كان الحارس آدم في غرفته يتابع الفيلم الأجنبي، فقد كانت السينما بالنسبة إليه هي العالم الحقيقي. الحياة دائماً في مكان آخر كما قرأ عنوان رواية لكاتب أعجبه.

كان الفيلم الذي قد بدأ منذ فترة وجيزة اسمه (القيامة) يتحدث عن حياة الهنود الحمر قبيل وصول الأسبان إلى سواحل العالم الجديد. حينها أعجبه مشهد من الفيلم، فدوّن حواره، كعادته حينما يعجبه حوار ما في الأفلام. كان المشهد حينما اجتمعت القبيلة حول النار وهم يستمعون لشيخ هرم منهم يروي حكاية عن الإنسان والحيوان.

كان العجوز يتحدث ووهج النار يضيء وجهه، بينما وجوه الجالسين تنظر بإجلال ورهبة إلى وجهه الذي يشي بحكمة السنين:

- جلس الإنسان وحيداً وحزيناً جداً، فجاءت جميع الحيوانات إليه وقالت له: نحن لا نريد أن نراك حزيناً، لذلك يمكنك أن تطلب منا كل ما تتمنّى. فقال الإنسان: أتمنّى أن تكون لي عينان تبصران بقوة. فقال له النسر: خذ بصري. فقال الإنسان: أريد أن أكون قوياً. فقال له النمر: خذ قوتي وكن قوياً مثلي. فقال الإنسان: أريد أن أعرف أسرار الأرض. فقالت له الأفعى: سأريك إياها جميعاً.

وهكذا جاءت جميع الحيوانات في طابور لتمنح الإنسان كل ما تملك وما يميزها. وحينما حصل الإنسان على كل شيء قام ذاهباً. عندها قالت البومة لبقية الحيوانات: هكذا حصل الإنسان على كل المعارف وحاز على كل القوى، وبإمكانه أن يفعل كل شيء، وأنا أشعر بالخوف منه. فقال الأيل: لقد حصل الإنسان على كل شيء يحتاجه ويتمناه ولن يكون حزيناً بعد الآن ولن يحتاج إلى شيء. فقالت البومة: لقد رأيت فراغاً هائلاً في داخل الإنسان، فراغاً شاسعاً كالجوع، وهذا لن يتركه هادئاً، لذلك فهو حزين، وسيطلب أكثر وأكثر، وسيأخذ ويأخذ دائماً، إلى أن يصرخ العالم ذات يوم: لم يبقَ عندي أي شيء لأمنحك إياه، لم يبقَ عندي شيء.

حينما انتهى الفيلم شعر الحارس آدم بالخوف، لأن الحياة التي كان يعيشها سكان المايا لم تفرق إلا قليلاً عن حياة المشرحة، فالجثث التي يتم

شقها وتقطيعها يومياً هي لموتى، لبشر فارقوا الحياة، وبالتالي فهم لا يشعرون بالألم، لكن كهنة المعابد عند المايا كانوا يقدمون الأضاحي بشق صدور الأسرى وإخراج قلوبهم وهم أحياء ثم قطع رؤوسهم ودحرجتها من أعلى المعبد الذي بُني على شكل هرم فرعوني.

في هذه الأثناء سمع آدم صوت بكاء آتٍ من الممر. صوت صبي ينادي أمه. ظنّ أن صوت البكاء قادم من التلفزيون. فأخفض الصوت، فجاء الصوت واضحاً من الممر.

أحسّ آدم الارتباك الممزوج بالخوف والدهشة. أبقى صوت التلفزيون منخفضاً إذ يمكنه قراءة الترجمة. بالرغم من أن الفيلم قد انتهى. لكن صوت البكاء لم ينته. كان ينخفض للحظات، ويصمت للحظات، لكنه يعود عالياً في أرجاء الممر.

نهض بهدوء. أخذ المصباح الذي يعمل بالبطاريات معه بالرغم من أن الممر كان مضاء. راودته فكرة غير منطقية أو معقولة، لكنه حاول من خلالها تفسير هذا الصوت الذي يسمعه، فربما أنه صوت بكاء صبي نسيه أهله في المشرحة، لكنه أجاب على تساؤلات نفسه: من الذي يجيء بصبي إلى مشرحة؟ وكيف لم يفتقده أهله؟ وأين كان هذا الصبي طوال كل هذا الوقت؟ ولماذا يأتي صوته من الممر في الطابق السفلي؟ ماذا لو جاء المساعد والرجال الثلاثة مرة أخرى؟

فتح باب الغرفة فجاء الصوت أقوى. خرج إلى الممر متجهاً نحو جهة الدرج، لكنه انتبه إلى أن الصوت يأتي من الجهة الأخرى المقابلة، جهة قاعة الثلاجات وقاعة التشريح. ركّز أكثر فانتبه إلى الصوت يأتي من قاعة التشريح المغلقة والغارقة في الظلام.

بحذر شديد وبخطوات مرتبكة وبطيئة اتجه آدم نحو جهة الصوت. وقف أمام قاعة التشريح فسمع الصوت بشكل أوضح، بل لم يكن صوت الصبي وحده وإنما هناك مجموعة أصوات تحاول أن تواسيه على غياب أمه. بغريزته عرف أن هذه الأصوات هي أصوات الجثث.

ارتعب آدم، وعاد راكضاً إلى غرفته. أغلق الباب بالمفتاح، وبقي خلف الباب واقفاً وهو يحسّ بقشعريرة تسري في أوصاله. ماذا يجري له؟ هل جنّ؟ هل ما يراه، ويسمعه، هو حقيقة؟ ومن يصدقه إذا ما روى ذلك؟ في الأعلى سمع قصصاً أصحاب يؤكدون بأنهم أعدموا، لكنه لم يرَ أياً منهم، لكن هنا يعرف هذه الجثث، وأنها في طابقه؟

فجأة سكت صوت البكاء. لكنه سمع ضجة باب يُفتح، وصوت خطوات

تتعالى في الممر. الخطوات تتجه نحو جهة الغرفة. أخذ قلبه يدق بقوة. حين وصل صوت الخطوات إلى باب غرفته رفع كفه، لاإرادياً، ومسك فمه كي يمنع نفسه من الصراخ.
توقفت الخطوات عند باب غرفته للحظات وكأن هناك من يتنصت على الغرفة، ثم استمرت الخطوات ماشية باتجاه الطوابق العليا في المشرحة. انتبه إلى أن الخطوات لمجموعة تمشي، لكنها تخطو بالتتابع، إلى أن اختفت صاعدة الدرج.
لا يدري لِمَ أحسّ وكأنه تخلص من كابوس خانق. جلس على الصوفة الجلدية. أحسّ بعرق بارد يبلل جبينه ورقبته وظهره.
كانت شاشة التلفزيون تعيد بث إعلانات عن بورصة الأفلام قد بثّتها في بداية المساء. كان الحارس آدم ينظر إلى الشاشة بعيون تائهة لا ترى شيئاً. كان يحسّ وكأنه يسمع دقات قلبه، وراوده إحساس بالاختناق، وبضيق في التنفس.
ظل على جلسته ينظر إلى الشاشة. لم يكن يفكر بشيء، ولا يريد التفكير بشيء. كان يحسّ بفراغ شاسع في أعماقه.
لم تمر إلا دقائق معدودة حتى بدأ الضجيج يصل مسامعه. وقع خطوات على الدرج وهي تهبط إلى الممر. إنهم عائدون. لكن مَن هم؟
بدأت أصوات خطواتهم تقترب باتجاه قاعة التشريح، وحينما وصلت الخطوات إلى باب غرفته توقفت. فجأة سمع طرقاً على الباب. طرقاً خفيفاً أول الأمر. طرقاً أشبه بلمس الأصابع على الباب.
هبّ واقفاً برعب. لكنه ظل جامداً هكذا للحظات، أحسها طويلة بشكل قاتل. كتم أنفاسه، وضغط بكفه على فمه بقوة. لا يعرف كم مرّ من الوقت، لكنه أحسّ، ثانية، بطرق خفيف على الباب، طرق كان أوضح من المرة الأولى.
بلع ريقه بصعوبة. لم يتحرك من مكانه. فجأة، أفزعه طرق قوي على الباب، ثم تلاه صوت أشبه بالحشرجة وكأنه يأتي من مكان بعيد لكنه واضح:
- آدم... آدم.
حاول أن يتحرك نحو الباب فأحس بما يشبه الشلل. لم يستطع الحركة. صار الطرق أقوى، بل أحس بأن هناك أكثر من كف تطرق عليه الباب، يرافقها صوت عميق يناديه:
- آدم.

لم يستطع أن يفتح الباب، لكنه من شدة الرعب توجه نحو البؤبؤ الزجاجي النابت في وسط الباب، وبيد مرتجفة حرك الغطاء الذي يغطي البؤبؤ ووضع عينه عليها لينظر من خلاله. أحس أنه في حالة ارتجاف وضعف.

كانت الجثث جميعها تقف أمام الباب. نظراتها جامدة، ووجوهها جامدة لكنها ناطقة. ظل جامداً في مكانه. كانت تقف أمام الباب، وجوهها المشوهة تأتيه من خلال البؤبؤ الزجاجي. كانت تمد أيديها إليه وكأنها تريد جره من خلال الباب.

ظلت الجثث تطرق الباب منادية باسمه، لكنه كان جامداً لا يتحرك. فجأة أخذت الجثث تسير باتجاه قاعة التشريح. مرّت وجوهها من خلال البؤبؤ الزجاجي. انتبه إلى أن الصبي معهم أيضاً، وكان ممسكاً بيد العجوز.

اختفت الجثث مع وقع خطواتها المرعبة، لكنه ظل واقفاً. أحس أن الجثث دخلت إلى قاعة التشريح، لأنه سمع حركة باب قاعة التشريح وهو يغلق بقوة. لم يستطع أن يتماسك أكثر، أحس أنه ينهار وأن جسده يخر إلى الأرض. ظل على جلسته تلك لفترة طويلة.

لم يعرف الحارس آدم كم مرّ عليه من الوقت وهو جالس عند الباب من الداخل مبللاً ببوله. كان قد استقر نفسياً وذهب عنه الخوف. أخذ يفكر في كل ما جرى. أحس بدفق من الشجاعة ليتأكد من كل ما مرّ عليه؟

نهض من مكانه. راودته رغبة قوية في أن يذهب إلى قاعة التشريح، وكأنه ليس آدم الذي بال على نفسه من الرعب قبل قليل. فتح باب غرفته بهدوء وحذر. أطل برأسه متلفتاً في الممر.

كان الممر خالياً، ومهجوراً، وغارقاً في الصمت، وكأن المكان ليس هذه المشرحة الغارقة في الظلام، والواقعة في مدينة غارقة في الظلام، في بلاد غارقة في الظلام، في قارة غارقة في الظلام، في كوكب صغير غارق في الظلام.

خرج الحارس آدم من غرفته بحذر شديد وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد، أو أن لا يوقظ أحداً، أو أن ينتبه إليه أحد. فجأة جلس على الأرض عند الباب، ثم أخذ يزحف بخطوات، متوترة وبطيئة جداً، على يديه وركبتيه مقترباً من قاعة التشريح.

حين وصل إلى قرب القاعة تناهى إلى سمعه أصوات الجثث وهي تتحاور. أحس بالخوف ثانية. بل أحس بالشلل. ولعن نفسه الجبانة التي حرضته على الخروج من غرفته. ظل جالساً في مكانه، يملأه الرعب، مستمعاً لما

يدور من حديث، متمنياً أن لا ينتبه إليه أحد. سأل نفسه مرة أخرى: كيف يمكن للجثث أن تتحدث وكأنها بشر أحياء؟ صحيح أنه سمع، حينما كان في الطابق الأعلى، حديثاً ترويه جثث، لكنه لم يرَ شيئاً وإنما سمع الحديث؟ وهو ليس متأكداً مما رآه هناك أصلاً، إذا بدا له المكان لا علاقة له بالمشرحة، فهو أوسع منها بكثير.

كانت كل جثة قد جلست على سريرها النقال، وكانت الجثث ممزقة من الخلف. بعضها في الرأس وبعضها في الصدر. رأس إحداها قد بدت مهشمة من الخلف، وعند أخرى كان نصف القفص الصدري قد اقتلع في الانفجار.

التفتت الجثة التي كانت قريبة من باب القاعة، والتي كانت للفتاة التي تلبس الجينز، قائلة:

- كيف سنقضي الليلة. إنها بداية حياتنا الجديدة.

التفتت جثة المرأة العجوز وهي تسأل:

- بداية حياتنا الجديدة...؟؟

- أقصد أول ليلة في تاريخ موتنا.

التفتت المرأة المحجبة، فتبين الفراغ في ظهرها، حيث طار عمودها الفقري وكتفاها من الخلف، وقالت:

- ألم تسمعوا الحديث النبوي الشريف: الناس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا؟

فقالت المرأة الأنيقة التي كانت مصابة برصاصة في الرأس:

- بلى، إنه حديث معروف، لكنه غريب حقاً، وكأن الموت هو الحياة الحقيقية، وما الحياة سوى كابوس طويل.

أخذت بقية الجثث تنظر لبعضها، وكأنها تستغرب هذا النقاش في مثل هذه الليلة الحزينة عليهن. الجثة التي كانت عند الباب قالت:

- أنا غير متعلمة مثلكن، إلا أن الذي أعرفه هو أننا نبقى لفترة قليلة جداً في هذا العالم ثم ننتقل إلى عالم الأرواح. غداً سنفترق. بعد أن يمزقوا أجسادنا، باحثين عن سبب موتنا. وربما لن يقوموا بذلك. فقط سيأتي أهلنا لأخذنا من هنا لتدفن أجسادنا.

فالتفتت المرأة العجوز سائلة:

- والذي ليس لديه أهل أو من يسأل عنه؟ ماذا سيفعلون بجثته؟

- لا أعرف.. ربما سيوضع في الثلاجة. لكن أليس لديك أحد؟ سألت جثة الفتاة التي قرب الباب.

- لا.. لا أحد عندي ليسأل عني.

صمت الجميع. استمرت العجوز وكأنها تحدث نفسها:

- قصتي طويلة...
انبرت الجثة التي كانت في أعماق القاعة، قائلة بصوت مرتفع:
- أنا أيضاً لا أحد سيسأل عني.
التفتت جميع الجثث إليها بصمت ودهشة الموتى الجامدة. لكنها استمرت بالحديث:
- أنا غريبة، أقصد ضيفة. وعائلتي في ألمانيا؟ ربما ستسألون: ما الذي جاء بك إلى بغداد؟ هل تودون سماع قصتي؟
استمرت الجثث تنظر إليها نظرة استغراب وفضول دونما اعتراض، ففهمت الجثة التي كانت في أعماق القاعة بأن هذا علامة الموافقة. إلا أن الجثة التي كانت عند الباب علقت قائلة:
- نرجو أن تستعرضي لنا قصصاً خيالية، فنحن نعرف أن معظم الذين يأتون من الخارج يرون قصصاً لا يصدقها العقل.
نظرت إليها الجثة التي كانت في أعماق القاعة قائلة بنبرة فيها شيء من العتاب الممزوج بالحزن:
- ولماذا أروي قصصاً لا يصدقها العقل؟ اسمعي قصتي أولاً، ثم احكمي في ما بعد.
نظرت الجثة العجوز إلى الجثة الفتية التي عند الباب بعتاب، ثم التفت إلى جثة المرأة الغريبة قائلة:
- احكي قصتك يا ابنتي.. نحن نسمعك.
كان آدم منبطحاً تحت النافذة، لا يستطيع الحركة، محاولاً الاستماع لما تتحدث به الجثث.

(7)

حوّاء هانوفر

أنا اسمي حواء. العائلة التي استضافتني هنا في بغداد أطلقت عليّ اسم (حواء هانوفر) لأني جئت إلى العراق من مدينة هانوفر بألمانيا التي أعيش فيها منذ خمس عشرة سنة تقريباً. عدت قبل أقل من شهر لأراجع هيئة نزاعات الملكية في بغداد لاسترجاع أملاكنا التي تمت مصادرتها في بداية الثمانينات، وأيضاً لاستخراج وثائقي العراقية كالجنسية وجواز السفر. صحيح أنه لا معارف لديّ في بغداد لكن أخت إحدى معارفي في هانوفر استضافتني لديها، بل وساعدتني في إرشادي على المؤسسات والدوائر التي عليّ مراجعتها. تركت زوجي وأطفالي في ألمانيا وجئت وحدي.

(هنا بدأت المرأة – الجثة تبكي، كما بدا التأثر على وجوه الجثث الأخرى). إنني أشتاق إليهم جداً، ويحزنني أنني لن أراهم بعد الآن. من الطبيعي أنهم لا يعرفون أنني قد قتلت أو يمكن القول ذُبحت في الانفجار، فكما تعرفون أن شظية قد قطعت رقبتي من الوريد إلى الوريد.

أنا أشتاق إلى ابني الصغير جداً. إنه يبلغ من العمر سبعة أعوام. بالمناسبة إنه من زوجي الثاني. لديّ من الأول ولدان، ابن وابنة، ومن الثاني ابنان. زوجي الأول قُتل، قتلهُ أخوه وذلك بعد وصولنا إلى ألمانيا بأقل من ستة أشهر.

(بدأت علامات الدهشة والفضول والتعاطف على وجوه الجثث الأخرى التي كانت كل منها جالسة على سريرها).

لا تستغربوا، فحكاية قابيل وهابيل تتكرر كل يوم، وفي كل زمان ومكان. سأحكي لكم كيف حدث ذلك، لأني أرى استفسارات كثيرة في وجوهكم. الحكاية وما فيها بدأت بعد إعدام أخي الأكبر بتهمة الانتماء إلى إحدى الأحزاب الدينية، على الرغم من أنه كان شيوعياً، بل وقد اعتقل حينما بدأت السلطة باعتقال الشيوعيين، فبعد أسابيع من التعذيب وقع على تعهد بعدم ممارسة السياسة وترك الحزب الشيوعي، لكن بعد سنة ونصف تم اعتقاله ثانية بتهمة النشاط الديني وكتابة شعارات ضد الحكومة والحزب القائد. لم يعد إلينا، وحين بدأ والدي بمراجعة الجهات المسؤولة ودفع الرشاوى لمختلف المراتب، علمنا أنه اعدم مع مجموعة أخرى من الشيوعيين بتهمة الانتماء لحزب الدعوة الإسلامية؟

لم تكتف السلطة بإعدام أخي وإنما صادرت البيت الذي كنا نسكنه ومحلات أبي التي كان لأخي نصيب فيها. أبي أصابته جلطة دماغية بعد

شهر من سماع خبر الإعدام ومصادرة البيت والمحلات، ومات على أثرها بشهر. أنا وأمي جمعنا ما نستطيعه من أموال، وبعنا ما نستطيعه أيضاً، وسافرنا إلى الأردن ومنها إلى سوريا.
كنت حينها في بدايات العشرين من عمري. سكنا في السيدة زينب. تعرفنا على الكثير من العراقيين، ومن مختلف الطوائف والأديان، إلا أن علاقتنا كانت متينة مع عائلة عراقية طيبة، تتألف من ابنين وعدد من البنات. تقدم الابن الأصغر منهم، والذي كان اسمه آدم، لخطبتي، ولأن العائلة كانت قد فقدت الأب فقد قام الأخ الكبير بمفاتحة والدتي والتقدم بشكل رسمي من أجل خطبتي لأخيه آدم. لكني انتبهت ذلك اليوم لنظرات الأخ الكبير الشهوانية، فقد كان يأكلني بعينيه.
خطبتنا امتدت لأكثر من سنة لأن خطيبي آدم كان يصر على سفرنا إلى الخارج وطلب اللجوء السياسي. كان يعمل الليل مع النهار ليجمع ما يستطيعه، لكن العائلات العراقية المهاجرة، مع الأسف، لم تتخل عن النفاق والنميمة ومس أعراض الآخرين من أبناء بلدهم في الغربة، فصرنا مثار حديثهم وأقاويلهم كلما دخل علينا أو سهر عندنا. ومنعا للقيل والقال، تزوجنا في سوريا، وعاش هو معنا في البيت الذي كنا نسكنه أنا وأمي.
كان الأخ الكبير، يزورنا بشكل يومي، وكان يلاحقني بعينيه اللتين لا تخفيان شهوته ونواياه تجاهي. لم أستطع أن أخبر زوجي، لكني أخبرت أمي التي نصحتني بعدم إخبار زوجي، لأنه ربما سيحدث شجار بينهما، وسأتهم بأني سبب خلاف الأخوة، لا سيما ونحن على وشك مغادرة سوريا إلى ألمانيا.
زوجي آدم كان قد اتفق مع المهربين الذين حصلوا لنا، لا أعرف كيف، على تأشيرات سفر أوروبية. حاول زوجي، يرحمه الله، أن يقنع أمي بالسفر معنا إلى أوروبا لكنها رفضت عروضه المستمرة، لأنها لم تكن تريد مغادرة السيدة زينب. كانت تؤكد لنا بألاّ نقلق عليها، فلديها مبلغ لا بأس به يمكنها أن تعيش منه بكفاف، وأنها على أية حال في حماية الشفيعة زينب الكبرى، بطلة كربلاء، وربما ستزورنا إذا ما استقرت أوضاعنا في بلاد الغربة. حينها كنت حاملاً بطفلي الأول. وكان قد مرّ على حملي أربعة أشهر.
يوم السفر ودّعنا بعضنا، أنا وأمي، بالدموع التي انسكبت من عيوننا. في المطار لم نكن وحدنا. كانت هناك عائلات وأفراد من الشباب العراقيين معنا. لا نعرف لحد الآن كيف شكّت شرطة المطار بنا. لا أريد أن أطيل عليكم في سرد التفاصيل، فقد تم إلقاء القبض على الرجل المهرب الذي قام بالحصول على تأشيرة لنا مع بعض الشباب الذين تقدموا قبلنا إلى

تفتيش الجوازات.
تلك الحادثة كانت ضربة قوية وجّهت لنا. وبالتحديد لزوجي آدم. أنا شعرتُ بارتياح نفسي داخلي لأني سأرجع لأحضان أمي. على أية حال، رجعنا للسكن عند أمي التي برغم فرحتها لرجوعي إلا أنها تأثرت جداً لأنها كانت تعرف كم كلف ذلك زوجي من المال والمخاطر، لكنها كانت تؤكد لنا بأن الخير في ما اختاره الله لنا.
لم ييأس زوجي، بل ازداد إصراره على السفر وكأن الأمر تحول إلى نوع من التحدي، ولم يكن يعلم أنه كان يصرّ على مواجهة حتفه. صار يعمل في أكثر من مكان لتوفير المبالغ الجديدة التي تكلفها المغامرة الجديدة للسفر. المفاجأة التي كانت تنتظرنا هو أن الأخ الأكبر كان يخطط للسفر معنا أيضاً.
خلال الأشهر التي تلت ولدتُ ابني البكر، وهذا ما زاد من إصرار زوجي على السفر لأنه أخذ يفكر بمستقبل ابننا. كان يؤكد لي بأنه يريد مستقبلاً أفضل لابننا.
بعد ولادة ابني بسنتين توفيت أمي بالسكتة القلبية. استيقظت فجراً. صلّت الفجر وقرأت القرآن ونامت. لكنها لم تنهض من نومها. تعرضت لسكتة قلبية أثناء النوم.
على الرغم من الحزن الهائل الذي تركه موت أمي، إلا أنها بموتها قدمت لنا مساعدة كبيرة. إذ تركت لنا كل ما كان لديها من مبالغ لمعيشتها، وهذا ما مكّن زوجي أن يجد مهربين آخرين يعبرون بنا إلى أوروبا عن طريق تركيا. وهكذا بدأت رحلتنا الجديدة إلى الموت الذي كان ينتظر زوجي.
حينها كنت في الشهر الخامس من حملي الثاني. لا أحدثكم عن تفاصيل هذه الرحلة، والخوف الذي راودنا خلالها، المهم، وصلنا إلى أوروبا بعد مغامرات عجيبة، وعبور لحدود الدول بشكل غير شرعي مشياً. وهكذا مرت الأيام إلى أن وصلنا إلى ألمانيا.
خالي الأصغر ساعدنا كثيراً، منذ لحظة اتصالنا به من ألمانيا، حيث اتصل بدوره بأصدقائه في برلين، لأنه كان يعيش في غرب ألمانيا وفي مدينة بعيدة جداً عن برلين، وهؤلاء ساعدونا في اللغة وفي ترتيب بعض أمورنا في عملية طلب اللجوء، إلى أن تم فرزنا إلى معسكرات اللاجئين التي بقينا فيها لبعض الوقت، وانتهى الأمر بنا في قرية تابعة لمدينة صغيرة تابعة لمدينة هانوفر.

لا أطيل عليكم، منحتنا دائرة الأجانب شقة لا بأس بها، إلى جانب مرتب شهري للطعام، ما كنا لنحلم فيه في سوريا. هناك ولدت ابنتي، وكان زوجي مليئاً بالأحلام ويخطط لمشاريع كبيرة. كنا فرحين بما وصلنا إليه، برغم العزلة الكبيرة، حيث كنا نعيش وكما قلت في قرية تابعة لمدينة صغيرة، وكان علينا أن نمشي مسافة طويلة للوصول إلى المدينة مارين بمقبرة المدينة التي تنتصف الطريق بين القرية والمدينة. حينها زارنا خالي في تلك القرية وبقيّ عندنا أياما عدة. شرح لنا تفاصيل كثيرة عن أوضاع اللاجئين وحالهم في ألمانيا.

لكن فرحتنا لم تدم، إذ اتصل بنا الأخ الأكبر لزوجي من برلين. لقد ترك سوريا والتحق بنا إلى ألمانيا بعد أن عرف عن استقرارنا فيها من خلال اتصال زوجي معه. طلب اللجوء في برلين، وهناك أعطى عنواننا باعتباره من العائلة، فتم نقله إلى القرية نفسها. دائرة الأجانب أسكنته في بيت للعزاب، لكنه كان يقضي معظم وقته عندنا.

منذ وصول أخي زوجي إلى القرية تحولت حياتي إلى جحيم، بينما امتلأت حياة زوجي بالفرح لوصول أخيه. كان زوجي يكن احتراماً خاصاً لأخيه الأكبر، لكن الأخ الأكبر لم يقف عند حرمة الدين ولا الروابط العائلية، إذ أخذ يتحرش بيّ بشكل صريح ويكاشفني بحبه لي، وأنه ترك سوريا من أجلي فقط، لكي يكون قريباً مني، وطبعاً لم يكن بإمكاني مكاشفة زوجي خوفاً من المشاكل التي ستنجم عن ذلك.

كان يلاحقني في البيت، وأحياناً كان يختلق الأعذار ليبقى في البيت بينما يذهب زوجي إلى المدينة لشراء ما نحتاجه، وخلال ذلك كان يكاشفني بحبه. كنت أذكّره بالأخلاق والدين والمحارم إلا أن كل تلك الحجج لا تلقى أي اعتبار لديه، بل وصل الأمر إلى طلب معاشرته أيضاً. أن يتقاسمني مع أخيه، وبرغم ذلك كان هذا الأخ الأكبر يقيم الصلاة في أوقاتها جهد الإمكان.

ثم بدأ يفتعل الشجار مع زوجي، ويتصدى له لأسباب تافهة، ولأبسط رأي يقوله زوجي فيبدأ بالانتقاص منه ويصفه بأنه متخلف ولا يفهم شيئاً، بل في إحدى المرات قال له بأن وجود امرأة مثلي كثير عليه فهو لا يستحقني، وأنه أخطأ حينما طلبني له.

بعد حوالى ثلاثة أشهر من وصولنا إلى ألمانيا ولدت ابنتي. الغريب أن زوجي انزعج من ولادة ابنتي بينما الأخ الأكبر فرح بولادتها كثيراً وكأنها ابنته، وكان ينتقد أخي على موقفه من ولادة ابنتي.

كنت في حيرة من تصرفات الأخ الأكبر، فهو يصلي في الأوقات لكنه لا يرى في زنا المحارم إثماً. لاحظت تغيرات طرأت على سلوكه، لا سيما بعد ولادة ابنتي، إذ صار هادئاً ومرحاً، ثم أخذ يتهاون في صلاته، وشيئاً فشيئاً تركها، إلى أن فاجأنا ذات يوم بدخوله حاملاً كيساً فيه عدد من قناني البيرة.

الغريب أن زوجي كان متديناً بشكل عام، ليس ملتزماً مثل أخيه الأكبر بالصلاة، لكنه يؤمن بالدين. لا يصلي بانتظام، لكنه يصوم رمضان ويلتزم بشكل كامل خلاله، لكن لا أدري ما الذي أصابه منذ وصولنا إلى ألمانيا، فقد أخذ يتحول بشكل سريع. صار ينتقد كل ما كنا عليه خلال حياتنا في بلادنا، عاداتنا وتقاليدنا، إيماننا وعقائدنا، بل وصل الأمر إلى التشكيك بوجود الله.

الغريب في كل هذا، أنه عندما زارنا خالي الأصغر للمرة الثانية، وهو شيوعي، تناقشا بشكل عميق وحام، فقد كان خالي قد ابتعد عن الماديين الملحدين وصار يحدثه عن آفاق الفيزياء والكيمياء بينما كان زوجي يصيح بشكل عصبي، إذا كان الله موجوداً فلماذا كل هذا الظلم في الأرض؟ ولماذا يولد الأطفال مشوهين؟ ولماذا يهز الأرض بالزلازل ليموت الأبرياء من أطفال وشيوخ وفقراء؟ وكان خالي يجيبه بأن هذه الأمور لها علاقة بطبيعة المجتمعات وطبقاتها، والاستغلال الطبقي، واستغلال الدول الصناعية للدول الفقيرة، وحدثه عن البنك الدولي وصراع الحضارات،وعن الوعي الصحي للرجال والنساء وطبيعة العلاقات العائلية وزواج الأقارب وأشياء لا أذكرها الآن.

في هذه المعمعة من النقاشات كان الأخ الأكبر يقف أحياناً مع خالي ضد زوجي، لكن حينما كان لا يعجبه رأي خالي فإنه يصمت ولا يختلق أي صدام معه. أحسست بشيء من النفور من موقف زوجي. ربما لأنه أخذ لا يؤمن بالله، أو لأنه وقف بوجه خالي الذي أحبه كثيراً، وأعتقد أن زوجي أحسّ بموقفي منه من خلال برودة علاقتنا.

هل كنت أنا غبية؟ هل أنا أعطيت انطباعاً للأخ الأكبر بأني بدأت أميل إليه؟ كيف؟ ماذا بدر مني كي يفهم ذلك؟ هل لاحظ برودة علاقتي مع زوجي؟ لا أدري، لأنه ذات يوم دخل عليّ في المطبخ وقال لي بثقة كبيرة: اسمعي، أنا أعرف أنك تحبينني مثلما أحبك، لكنك لا تريدين الاعتراف بذلك؟ ثم هجم عليّ ليقبلني، فدفعته وأخذت سكين المطبخ الكبيرة مهددة إياه بطعنه إذا ما اقترب. أحسست أنه خاف وفوجئ من ردة فعلي، فخرج مصفر الوجه، وهو يهددني، ستكونين لي رغم أنفك.. ستكونين لي.

حين عاد زوجي من المدينة، وكان قد ذهب إليها مع ابني، وجدني عصبية المزاج، وحين سألني انفجرت بعصبية عليه وأخذت أندب حظي العاثر مستذكرة المصائب التي مرت بنا وفقداني لأهلي. عند المساء كدت أنفجر من الغضب، لأن هذا الشخص نفسه، الأخ الأكبر، جاء وكأن شيئاً لم يحدث. بل كان مرحاً؟

بعد ما جرى في المطبخ ذلك اليوم، صرت أتجنب البقاء في البيت وحدي، فصرتُ كلما يقرر زوجي النزول إلى المدينة أطلب النزول معه. أثاره هذا الأمر في البداية لكنه تعود عليه في ما بعد. المشكلة أني كنت أجبره على النزول إلى المدينة بالباص، بالرغم من أن ذلك يكلفنا الكثير من المال قياساً لميزانيتنا، لأني كنت أرفض المرور وسط المقبرة، لأني أكره المقابر منذ الطفولة.

كان زوجي يتغزل بمقابر المسيحيين، وكان دائماً يقول لي انظري إلى هذه المقابر وكأنها حدائق وجنان يتمنّى المرء لو يموت لينام فيها، ولم يكن يعلم أنه فعلاً سيرقد فيها.

بعد أيام دخلت المطبخ فرأيت صدفة خشبة، كان يبدو أن ضلع سرير قد تم تحطيمه لأن أحد أطرفه كان مليئاً بالمسامير البارزة.

لم أولِ الأمر أهمية، قلت مع نفسي ربما كان زوجي قد وضعه هنا ليستخدمه حطباً للموقد، فالجو بارد هنا في معظم فصول السنة، لا سيما الشتاء. لم يمر في ذهني بتاتاً بأن الأخ الأكبر كان قد خطط لقتل أخيه.

لا أدري كيف جرت الأمور. ذات مساء كنا في البيت نعد العشاء. كان زوجي يلعب مع ابننا في الصالة وابنتنا نائمة في غرفة نومنا. سأل زوجي عن سبب تأخر أخيه عن المجيء ذلك اليوم، فليس من عادته أن يتأخر عن العشاء، وأثناء حديثنا دخل الأخ الأكبر، وبدا أثر الشرب واضحاً على ملامحه. كان غاضباً وعصبياً أيضاً.

أنا قمت إلى المطبخ، فسمعت زوجي يعاتبه على شربه ومجيئه إلى البيت وهو ثمل، وسمعت جواب الأخ الأكبر على عتاب زوجي. كانت ضربة قوية على وجهه، وسبًّا وشتماً وتهديداً. رأيت من بعيد تقريباً كيف نهض زوجي ليدافع عن نفسه أمام هذا الهجوم الجسدي العنيف من قبل أخيه.

جرت الأمور بسرعة خاطفة. دخل الأخ الأكبر المطبخ مسرعاً، أخذ الخشبة المدببة بالمسامير وهجم على زوجي. ضربه على رأسه وكتفه ضربات عدة. سقط زوجي مضرجاً بدمائه. ابني أصابته ما يشبه اللوثة حينما شاهد أباه على الأرض والدم ينزف منه.

لم يكتفِ الأخ الأكبر بقتل أخيه وإنما هجم عليّ فضربني على رأسي لكني ملت قليلاً فجاءت الضربة أخف، ثم سحب سكيناً ليطعنني، فهربت إلى غرفة النوم حاملة ابني وأغلقتُ الباب. صرت أصرخ عالياً. فجاء الجيران، وهم عائلة ألمانية كانت تسكن في الطابق الأرضي. اتصلوا بالشرطة التي وصلت بعد دقائق قليلة فألقت القبض على الأخ الأكبر الذي ظل جالساً في البيت.

تأخرت سيارة الإسعاف كثيراً. نزف زوجي كثيراً. تم نقلنا إلى المستشفى جميعاً. زوجي نقل إلى غرفة العناية المركزة. كان هناك شخص عراقي كردي يسكن مع أطفاله في المدينة، وصادف وجوده في المستشفى لحظة وصولنا فأخذته الحمية الشرقية، فقام بمتابعة وضعنا، وقام ابنه بعملية الترجمة ومساعدتي في شرح الموقف.

طلبت من هذا الشخص الاتصال بخالي الذي جاء فوراً مع صديق له. كان زوجي في غيبوبة، لكنه لم يفق منها. مات زوجي، ووصل خالي مع صديقه. أنا أخذت علاجي، وبقي الطفلان عند عائلة الرجل العراقي الكردي. الأخ الأكبر اعتقلته الشرطة. أتوا له بمترجم رسمي كي يدوِّن أقواله، ونقل إلى سجن الولاية التي نتبع إليها إدارياً.

بقي خالي عندنا لأسبوعين تقريباً. كان مستغرباً من هذا المصير العجيب لزوجي. فقد خاض الحرب على الجبهات الأمامية مع إيران، وخرج سالماً، ثم هاجر وتنقل بين البلدان ليصل إلى هنا، ويموت بهذه الطريقة البشعة على يد أخيه الأكبر؟؟

(كانت الجثث تستمع إليها بفضول وتنظر برغم ذلك نظرات الموتى الجامدة، بينما كان الحارس تحت النافذة يفكر بقصة قابيل وهابيل ، ودور المرأة في أول جريمة عرفتها البشرية).

في التحقيق أنكر الأخ الأكبر أنه قتل أخاه، بل قيل لي إنه كان ينتحب عند التحقيق معه، وكان يضرب رأسه بالحائط، بل لقد ادّعى بأنه لم يكن في كامل وعيه، وأخذ يتصرف كمجنون، وطلب من المحققين أن يرى الأطفال ويقابلني؟

ومرّت الأيام والأسابيع. حضرت أكثر من جلسة تحقيق. وأخيراً تمّ الحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. حينها شعرت بالراحة النفسية. لكن بدأت معي قصة أخرى.

الرجل العراقي الكردي الذي ساعدني في المستشفى، أخذ يتردد علينا ويقدم خدماته البريئة، وتوثقت علاقتنا معه، لا سيما وأنه عمّق علاقته مع خالي،

بعد أن جمعتهما السياسة.
هذا الرجل أخذ يتقرب مني بشكل مريب، ويبدي إشارة المودة والحب. لم أكن في الوضع النفسي الذي يتيح لي أن أستجيب لمثل هذه الأمور. يئس الرجل مني، لا سيما وأن خالي قدم طلباً إلى دائرة الأجانب في مدينته من أجل قبولي هناك، فانتقلت إلى المدينة التي يعيش فيها خالي.
في المدينة الجديدة بدأت مرحلة جديدة أيضاً من حياتي. ولنشاط خالي السياسي كان كثيراً ما يحضر الندوات السياسية والاحتفالات التي تقام بالمناسبات، وكان يأخذني من أطفالي معه. تعرفت على العديد من العائلات العراقية، ومن بينها تعرفت على امرأة عراقية، كانت تبحث عن زوجة لخالها الوحيد الذي كان قد طلّق زوجته الألمانية ويريد امرأة عراقية.
وبعد زيارات مقصودة، تقدمت مع زوجها إلى خالي طالبين يدي. خالي على طريقته المتحررة، سألني عن رأيي موضحاً لي أنه يعرف الرجل وأنه إنسان طيب ومن عائلة طيبة، ناهيك أني ما زلت في عز شبابي وأمامي سنوات طويلة في الغربة وتربية الأطفال، وطلب مني أن أقابل الخطيب شخصياً وأتحدث معه وأقرر. وفعلاً قابلته وتحدثنا قليلاً، وأعجبني.
لماذا تبتسمون؟ من خلال نظراتكم الجامدة أشعر أنكم تستغربون صراحتي. الموتى لا يكذبون. أنتم تعرفون ذلك. لقد عبرنا من تلك الضفة حيث الكذب والنفاق والحقد والأقنعة من صفات البشر. نحن لسنا بشراً، نحن مجرد جثث، مجرد أموات، أليس كذلك؟
(قاطعتها الجثة التي كانت جالسة على السرير النقال قائلة):
- يبدو أن قصتك لن تنتهي. كل واحدة منا تريد أن تقص حكايتها مع الحياة، والليل ليس طويلا ً لكل حكاياتنا، فاختصري رجاءً. صباحاً لن يكون في مقدورنا أن نجتمع هكذا. لا نعرف أين سنكون في الليلة القادمة.
فوجئت جثة حواء هانوفر بهذه المقاطعة الحادة، صمتت للحظة ثم قالت):
- لن أطيل عليكم. سأختصر جهد الإمكان. مع زوجي الثاني كانت أجمل سنوات حياتي. إنه إنسان متواضع جداً. طيب جداً. يعمل في إحدى المصانع التي تجهز معامل السيارات بالقطع البلاستيكية. كنا نعيش في مدينة صغيرة جدا أشبه بقرية، قريباً من مدينة هانوفر.
كنا في عزلة عن العالم. ليست لدينا أية صلة بالعالم إلا من خلال التلفزيون والأفلام. وهناك ولدت ابنيّ. وأقول الحق إن زوجي الثاني كان نعم المربي بالنسبة لابني البكر وابنتي.
كنا نتابع أخبار العراق من خلال شاشة التلفزيون. وبالرغم من أن زوجي

يكره السياسة إلا أننا كنا نجد أنفسنا ننفعل لأية أخبار تخص العراق، إلى أن جاء الأميركان وأزاحوا الطاغية. لكن الموت والقتل لم يرحلا برحيله؟
المهم، كنا نسمع بالقرارات الجديدة وبالإنجازات من خلال شاشة التلفزيون، إلا أن إحدى جاراتي العراقيات حثتني على تقديم معاملة استرجاع أملاكنا المصادرة، إلى جانب تقديم معاملة إلى هيئة الشهداء باعتبار أن أخي من الشهداء، كما أردت أن أحصل على الوثائق العراقية كالجنسية وجواز السفر.
أخبرت زوجي بأنني أريد السفر إلى بغداد.عارض أول الأمر لكنه رضخ تحت إلحاحي. واليوم كنت ذاهبة لتقديم معاملتي إلى هيئة الشهداء، كنا معاً كما أعتقد. لم أذكر شيئاً سوى ألم خفيف في عنقي، ولم أعد أذكر شيئاً. هنا أفقت معكم. وعرفت أننا متنا. أليس كذلك؟
(أومأت الجثث بانحناءة من رؤوسها دلالة على الموافقة بأنهم أموات. صمتوا ، إلا الجثة التي قرب الباب فانبرت قائلة، وكأنها تريد أن تقطع صمت الموتى الثقيل:
- سأحدثكم عن قصتي أنا. لا أدري إن كانت ستثيركم مثلما أثارتكم قصة حواء هانوفر.
فقاطعتها جثة المرأة المحجبة سائلة حواء هانوفر:
- وماذا عن الأخ الأكبر قاتل زوجك الأول؟ صمت الجميع للحظة وكأنهم كانوا يريدون فعلاً معرفة مصيره. فقالت حواء هانوفر):
هل تصدقون أنه تم الإفراج عنه من السجن لحسن السيرة والسلوك، كما مُنح حق اللجوء السياسي في ألمانيا؟
خلال سنوات سجنه كان يبعث لي الرسائل عن طريق خالي الذي كان قد أجابه مرة بأنني تزوجت وبدأت حياة جديدة وأن عليه أن يبتعد عني، فأصرّ بأنه يريد أن يرى أبناء أخيه ويريد أن يربيهم، فأخبره خالي بأن المحاكم الألمانية لا تمنحه هذا الحق أبداً كونه قاتل أبيهم. طبعاً زوجي لم يعلم بهذه المراسلات إلا بعد سنوات، وبالصدفة حينما كان خالي في زيارة لنا ودار الحديث عن مستقبل الأولاد، بل سمعت أنه تزوج من امرأة من شرق آسيا، ويعيش في جنوب ألمانيا.
سكتت حواء هانوفر. فاستغلت الجثة التي قرب الباب لحظة السكوت وقالت:
- سأروي لكم قصتي.
التفتت جثة العجوز إليها وقالت:
- يا ابنتي أنت ما زلت صغيرة. ما الذي نجده في قصة حياتك من

المآسي، أكبر مأساة في حياتك هو موتك بهذا العمر، فأنت لم تستمتعي بالحياة بعد.

سكتت جثة الفتاة الشابة قليلاً لكنها قالت بسخرية:

- لو تعرفين قصتي ما علقت عليها قبل أن تسمعيها يا جدتي.

ارتسمت الدهشة على وجه جثة العجوز لكلامها وقالت:

- هاتي ما عندك يا ابنتي.

نظرت جثة الفتاة إلى بقية الجثث وكأنها تشجعت، ثم بدأت بسرد حكايتها.

(8)

فضول الموتى

ما أن أنهت جثة حواء هانوفر سرد قصتها حتى سمع الحارس آدم حركة في قاعة الثلاجات، وكأنه رفس أقدام على البوابات التي تحفظ الجثث. وبالرغم من أن الحارس آدم قد تقرفص على الأرض بحيث لا يمكن للجثث الموجودة في قاعة المشرحة أن تنتبه لوجوده وهو يستمع لحكاياتها، فإنه لم يكن بمقدوره عبور تلك المسافة حتى قاعة الثلاجات ليرفع سر هذه الضجة. فجأة سمع ضجة قوية قادمة من قاعة الثلاجات بما يشبه فتح لأبواب الثلاجات وسحب الأسرة التي ترقد الجثث عليها. كما أحس بحركة قادمة من قاعة التشريح، وكأن الجثث الموجودة هناك قد انتبهت للضجة القادمة من قاعة الثلاجات، لذلك نزلت من أسرّتها المتنقلة لفتح الباب أو للنظر من النافذة.

لم يستطع الحارس آدم أن يتحمل ذلك، فتحرك قليلاً من تحت نافذة قاعة التشريح، زاحفاً إلى الوراء، وما أن ابتعد عن النافذة حتى قام، واتجه راكضاً بسرعة خاطفة إلى غرفته، فدخلها وأغلق الباب خلفه. وقف خلف الباب يتنصت لأي حركة تأتي من الممر.

سمع باب قاعة التشريح يفتح، عرف أن الجثث قامت من مكانها لتستوضح الضجة، ثم سمع وقع خطواتها يتجه نحو غرفته. بدأت الخطوات تقترب باتجاهه. توقفت عند الباب.

كان آدم مختنق الأنفاس عند الباب من الداخل. تطلع من البؤبؤ الزجاجي الموجود بمستوى النظر على الباب، وجد وجوه الجثث ملتفتة إلى جهة قاعة الثلاجات وكأنها انتبهت إلى أن الصوت يأتي من هناك، فتوجهت نحو جهة الصوت، وهكذا اختفت وجوه الجثث من أمام نظر الحارس آدم.

فجأة سمع وقع خطوات تأتي من جهة الدرج النازل من الطابق الأرضي، وضجة تبدو لأكثر من شخص. بدأ وقع الخطوات في الممر يتعالى. اقتربت الخطوات من غرفته ووقفت عنده، ثم سمع طرقاً على الباب وصوت مساعد الطبيب الخفر وهو يناديه:

- آدم.. آدم.. استيقظ.

تطلع من البؤبؤ الزجاجي فلمح وجه مساعد الطبيب مشوهاً وبعيداً، لكنه تأكد من أن الموجودين ليسوا بجثث وإنما هم أحياء، ففتح الباب.

كان طبيب الخفر ومساعده وثلاثة من الرجال المسلحين الذين يبدو من ملابسهم بأنهم من رجال الحرس الوطني يقفون أمام باب الغرفة. ارتبك

الحارس آدم، أحس أن شيئاً ما ليس على ما يرام. ما أن فتح الباب حتى سأله الطبيب الخفر:

- آدم.. هل رأيت أو سمعت شيئاً غير اعتيادي هنا في الممر؟

ارتبك الحارس آدم أكثر وخاف أن يروي ما رآه وما سمعه، فأجاب:

- لا.. هل حصل شيء ما؟

فقال الطبيب وهو يتجه في عمق الممر:

- الأخوان من الحرس الوطني يقولون إنهم رأوا جثثا تمشي على الجسر، ويعتقدون أنها هربت من المشرحة لأنها كانت تبدو ممزقة، هل رأيت أو سمعت شيئاً غير طبيعي؟ تعال معنا..

ارتعب الحارس آدم من قول الطبيب. كان الآخرون يحدقون إلى وجهه، وكأنهم ينتظرون نطق الحكم في محكمة. انتبه إلى أن رجال الحرس الوطني، بل حتى الطبيب الخفر ومساعده، يتميزون بأثر للخياطة عند عنقهم التي لم تستطع القمصان أن تغطيها:

- أبداً.. لم ألاحظ أو أسمع شيئاً.. الجثث التي وصلت اليوم موجودة في قاعة التشريح.

ثم تبع الطبيب، بل وحاول تجاوزه للوصول إلى قاعة التشريح، فتبعه الجميع. وحينما وصلوا إلى قاعة التشريح توقفوا. أحد رجال الحرس الوطني قاطعهم قائلاً:

- يا جماعة.. أنا أنتظر هنا، فأنا بصراحة لا أحب رؤية الجثث الجديدة في قاعة التشريح.

كان الحارس آدم مرتبكاً وهو يتبعهم داخلاً قاعة التشريح حيث كانت الجثث ممدة على الأسرّة النقالة، تفوح منها رائحة الموت الباردة والمرعبة.

وقف الطبيب ومساعده ورجلا الحرس الوطني وخلفهم الحارس آدم للحظات عن مدخل القاعة. تأملوا القاعة بنظرة سريعة، ثم خرجوا منها متجهين بسرعة نحو الطابق الأرضي وكأنهم يستعجلون مغادرة هذا الطابق المخيف، ناظرين إلى الحارس آدم نظرات مريبة وكأنهم يحاولون معرفة سر هذا الرجل الذي يعيش مع الجثث في الطابق نفسه.

صعد الطبيب الخفر ومساعده والرجال المسلحون السلّم إلى الطابق الأرضي. بقي الحارس آدم عند أسفل السلّم. نظر إلى الممر نظرة متفحصة، ثم أسرع الخطى إلى غرفته، فدخلها ثم أغلق الباب خلفه.

بقي الحارس آدم واقفاً عند الباب. فكّر بما حدث وسأل نفسه عن معنى رؤية جثث تمشي على الجسر؟ الجثث التي نقلت للمشرحة اليوم ما زالت

موجودة في قاعة التشريح، وهي لنساء. لكنهم لم يحددوا جنس الجثث؟ لم يوضحوا إن كانت الجثث لرجال أو نساء؟ فجأة برقت في ذهنه فكرة: ربما الجثث التي شاهدها رجال الحرس الوطني لا تعود لضحايا الانفجار هذا اليوم، وإنما هي من الجثث المجهولة المتروكة في الثلاجات وهي بالعشرات؟
شعر بالرعب من هذه الفكرة، كيف خرجت تلك الجثث من الثلاجات؟ وإلى أين تريد الذهاب؟ ومن أين خرجت؟
خطا بضع خطوات داخل الغرفة ثم جلس على الصوفة الجلدية. وضع رأسه بين يديه وهو يحدق إلى أرضية الغرفة، متأملاً، كل ما جرى له اليوم. ما معنى كل هذا؟ فكّر مع نفسه، لقد عاش الكثير من الصراعات الروحية والفكرية سابقاً، وتداخلت عنده حدود المعقول واللامعقول، والخيال والواقع، لكنه لا يعرف الآن بالضبط ما يجري، هل ما يراه ويسمعه هو واقع أم رؤى روحية ونفسية هي نتاج عقله المتوتر وصراعاته الداخلية؟ كيف للجثث أن تتحدث بشكل طبيعي وكأن أصحابها أحياء يرزقون؟
ربما ما سمعه من حواء هانوفر هو من شطحاته النفسية خلال بحثه المحموم عن معنى الحياة، وسعيه لإيجاد سيرة ذاتية لأصحاب الجثث، وبالتالي فإن تفكيره هيأ له هذا التصور وهذه السيرة؟ لو كان الأمر كذلك، فما معنى نزول الطبيب الخفر والمساعد مع رجال الحرس الوطني للتأكد من وجود الجثث؟ ولمن، يا تُرى، تلك الجثث التي لمحها رجال الحرس وهي تعبر الجسر؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يوقف رجال الحرس الوطني تلك الجثث الهاربة من المشرحة؟ بل هل كان هناك، يا تُرى، طبيب ومساعد ورجال حرس وطني أساساً؟ أحقاً طرقَ البابَ أحدٌ؟ وخرج هو إليهم، وذهب معهم إلى قاعة التشريح أيضاً؟
ظل الحارس آدم يسبح عابراً أمواج أفكاره المتلاطمة بصعوبة. لم يجد ثمة ساحلاً قريباً. الأفق مفتوح. لكن كيف له أن يتأكد من حقيقة ما جرى؟ قرر أن يذهب إلى قاعة التشريح ثانية؟ ويذهب أيضاً إلى قاعة الثلاجات ليتأكد من الضجة التي سمعها قبل ذلك.
لا يعرف من أين جاءته الجرأة على اتخاذ مثل هذا القرار. نهض متجهاً إلى الباب. توقف متلفتاً في الغرفة، ثم فتح الباب بهدوء. توقف قبل أن يخرج مستمعاً لما يجري في الممر. لم يسمع شيئاً. خرج بهدوء. واتجه متسللاً نحو قاعة التشريح. سمع إحداهن تتحدث. شلت حركته. توقف عن المشي. جلس ثانية على الأرض، ثم بدأ كالمرة السابقة زاحفاً على الأرض متجهاً نحو قاعة التشريح.

حينما وصل إلى أسفل النافذة التي تطل على الممر قرب باب قاعة التشريح عرف أن المتحدثة هي الجثة التي على السرير النقال الذي قرب الباب، والتي كانت تشاكس حواء هانوفر، ويبدو أنها كانت قد بدأت حكايتها، فالتقط ما وصل إليه منها.

(9)

حواء البغدادي

.. وكما قلت لكم فأنا متأكدة من أنكم لا تعرفونني من ناحية الشكل، لكن ربما سمعتم باسمي. أنا حواء البغدادي، المذيعة التي أقدّم برنامج ما يطلبه المستمعون من إذاعة الفردوس، البرنامج الذي يقدم يومياً لمدة ساعتين. أبث خلاله أنواع الأغاني التي يطلبها المتصلون، كما أستضيف المطربين والمطربات وأتابع فيه أخبار الفنانين. طبعاً أنا لم أدرس الإعلام، وليس لديّ سوى شهادة المتوسطة.

أبي وخالي استشهدا في زمن النظام المقبور كما نسمِّيه الآن. كنت حينها طفلة رضيعة. عرفت ذلك بعد دخول أميركا إلى بغداد. تقول أمي إن أبي وخالي كانا معارضين للنظام. خالي مات تحت التعذيب وأبي أعتقل ولم يعد إلينا قط. بعد سقوط النظام ذهبت أمي لتتفقد أسماء الشهداء والسجناء والمفقودين، فوجدت اسمه في قائمة المعدومين في سجن أبو غريب.

لا أدري كيف أتحدث عن أمي، لأن الأم مقدسة مهما فعلت، لكني الآن أستطيع أن أتحدث عنها بشكل صريح. لقد كانت أمي شابة حينما اعتقل أبي، لذلك عملت أمي منظفة في إحدى المستشفيات. لا أذكر من طفولتي ما هو قبل السادسة من عمري، على الرغم من أن البعض يدّعي بأنه يستذكر أشياء من حياته حينما كان في الثالثة.

أنا لا أتذكر إلا أشياء قليلة من طفولتي، لكن هذه الأشياء تكاد تنبض بالحياة. مثلاً، أتذكر أني استيقظت من نومي ذات ليلة فوجدت أن أمي تتعارك مع أحدهم في سريرها وهي تحت الغطاء. خفت أول الأمر، لكني سمعتها بعد ذلك تتلفظ ببعض الكلمات التي حتى في تلك الفترة من العمر كنت أعتبرها معيبة وأنها كانت تتحدث بكلمات كالحب مع أحدهم. ثم أطلّ من تحت الغطاء رأس رجل أشبه برأس حصان.

بعد ذلك حضر هذا الرجل أكثر من مرة إلى بيتنا، وكانت أمي حينها تعطيني بعض الحلوى، أو كان هذا الرجل يعطيني نقوداً للذهاب إلى الدكان القريب كي أشتري الحلوى وحينما كنت أشتري الحلوى وأرجع إلى البيت أجد أن الباب مقفل من الداخل فأظل أنتظر إلى حين خروج ذلك الرجل، ثم أخذت وجوه الرجال تتكرر.

كانت أمي تعمل كبيرة للمنظفات في أحد المستشفيات. أحياناً كانت تأخذني إلى هناك، فكنت أرى بعض وجوه الرجال التي يزورونها في البيت هناك أيضاً، وكان بعضهم يداعبني أو يمزح معي حينما يراني هناك.

حين صار عمري ثمانية أعوام، صرت أقضي معظم وقتي مع أمي في المستشفى، إذ كنت أعود من المدرسة لأذهب إلى المستشفى حينما تكون في الفترة المسائية. وهناك بدأت أتعرف على عالم الرجال وأنا في تلك الفترة من العمر. كنت أدخل إلى بعض غرف العاملين هناك بحرية.

أحياناً كنت أنام في المستشفى مع أمي حينما يكون لديها واجب ليلي هناك. ويبدو أن أمي خلال هذه السنوات التي قضتها في المستشفى قد عززت موقفها ووظيفتها، لأنها كانت تتصرف بحرية ودونما خوف من أحد، ولم أكن أعرف حينها السبب إلا حينما كبرت وفهمت بأنها قد نامت مع جميع الرجال العاملين في المستشفى.

بعدما كبرت، كنت أسأل نفسي أحياناً: ربما أنا لستُ ابنة أمي؟ ما من أم تتقبل هذه الوضعية لابنتها؟ لقد كانت قاسية جداً معي، بل إنها كانت ترى بعض العاملين معها ينظرون إليّ نظرات مليئة بالرغبة الجنسية، بينما كانت هي لا تعير للأمر أي اهتمام، بل سمعتها تقول لأحدهم بأني ما زلت صغيرة وعليه أن يصبر. هل كانت أمي امرأة ساقطة؟ هل كانت قوادة؟ حينها لم أكن أعرف ذلك.

حينما كنت في الحادية عشرة من عمري، صادقت أمي رجلاً. أخذ هذا الرجل يزورنا في البيت وينام في غرفتها بشكل دائم. ثم صار يعيش معنا بشكل دائم. لم تكن قد تزوجته، لكنه صار رب العائلة.

هذا الرجل استغل ذات يوم غياب أمي، فحاصرني في البيت وأخذ يحضنني ويقبلني. طبعاً، لا أريد أن أجعل من نفسي ضحية، فقد أعجبني الأمر، لكني كنت أخاف من أمي، لأنها لو عرفت فإنها ستتشاجر معه وسيكذبني هو، وتنتهي علاقتها معه وينقلب الأمر عليّ. من جانب آخر، فإني إذا لم أخبرها وتكتشف الأمر فسيتحول الأمر إلى كارثة. المهم، عزمت أن أخبرها لكن دون كل التفاصيل.

هل تصدقون أنها لم تتأثر بتاتاً حينما أخبرتها؟ بل كنت أنوي أن لا أروي كل شيء بالتفاصيل، لكني حينما وجدتها لم تتأثر أخبرتها بكل شيء وبأدق التفاصيل التي جرت معي. نظرت إليّ بتوسل ثم قالت: أنا أحبه، ولا أريده أن يغادر البيت. لا أستطيع العيش بدونه. أرجوك لا تتشاجري معه. اسكتي، ولا تخبري أحداً.

هذه هي الأم. لذلك أستغرب حينما أسمع الشعراء يتحدثون عن الأمهات، وعن الجنة التي تحت أقدامهن.

يبدو أن الرجل عرف بما جرى بيني وبين أمي، لا أدري كيف، إذ جاءني

ذات يوم وأخذني إلى غرفة أمي وعراني من ثيابي، وضاجعني بالكامل ممزقاً غشاء بكارتي.

هذه المرة لم تسكت أمي، لا غضباً لتصرفه معي وإنما غيرة مني، إذ سمعتهما يتشاجران لأول مرة. كانت تصرخ فيه بأنه لم يعد يحبها وإنما صار يحبني أنا. وكان هو يصرخ فيها بأنها يجب أن تقبل بما جرى ويجري، وأنني ساقطة مثلها، ولو لم يفتحني ويزيل بكارتي لأزالها شخص آخر، وأن عليها السكوت إذا أرادت أن يكون معها لأنه يعرف تاريخها كله ويعرف الرجال الذين ناموا معها، وأنها غبية، إذ عليها أن تستغلني وتستغل جمالي الباهر لتحسين حالتهم المادية. بعد ذلك بقليل سمعتهما يضحكان.

بعد هذا الحديث تغيرت علاقة أمي معي. صارت أكثر حذراً، وأكثر ليناً، إلى أن أخذت ذات يوم تسألني عن الرجال الذين يعملون معها في المستشفى، الذين نعرفهم معاً، وكيف هم معي؟ ومن منهم الأكثر لطفاً معي؟ ثم قالت لي بأن عليّ أن أشتري لنفسي ملابس جديدة وبعض الذهب، وحينما سألتها ومن أين نأتي بالمال؟ سكتت قليلاً ثم قالت، وهي تتأملني بدقة: يمكنك أن تطلبي منهم ذلك. كوني لطيفة معهم قليلاً، سايريهم، ثم اطلبي مقابل ذلك بعض المال، وقولي لهم إنك تحتاجين ذلك، وإذا سألوك عني وهل أنا أدري بما تطلبين، قولي لهم بأني لا أعرف ذلك، وأنك لا تريدين أن أعرف شيئاً عن ذلك؟ وفعلاً نجحت خطتها في الحصول على المال من خلالي.

واستمر الأمر لسنوات، إلى أن أنهيت الدراسة المتوسطة. كان جسدي قد نضج قبل الأوان بكثير، وصرت فتاة جميلة.

حينما فكرت أن أكمل الدراسة، وكنت أحب أن أكون ممثلة، وقفت هي ضد ذلك، وطلبت مني البحث عن عمل، أي عمل. أخذت تخرج معي إلى الأسواق، لنجلس معاً في بعض الأماكن المختلطة، وإذا ما وجدت هناك من ينظر إليّ فإنها تنبهني لذلك وتطلب مني أن أبدي إشارات الاستجابة، وتفسح المجال لي وللآخرين من أجل التواصل وإقامة العلاقات.

ذات يوم كنا، أنا وهي، عند محل لبيع أنواع الجبن والعسل والمكسرات في منطقة (الكرادة داخل) لنشتري عسلاً لعشيقها، دخل رجل في منتصف الأربعينات من العمر، وطلب ثلاثة كيلوات من لبن أربيل الشهير، وقنينة عسل وطلبات أخرى، وكان يبدو مستعجلاً، إلا أن صاحب المحل الكردي قال له بأننا جئنا قبله. فقلت لصاحب المحل أن ينجز طلبه لأنه كما

يبدو مستعجل، فشكرني جداً وأكد بأنه مستعجل حقاً، فلديه ضيوف، ثم أخرج بطاقته الشخصية وقدمها لي شاكراً، ومؤكداً بأنه سيكون سعيداً إذا ما قدم لنا أية خدمة، وطلب الاتصال به. هكذا بدأت علاقتي بهذا الرجل، الحاج آدم العراقي، الذي يكبرني بثلاثين عاماً.
بعد أيام طلبت أمي مني الاتصال به، والسؤال عنه وعن ضيوفه واستدراجه، فهو كما كان واضحاً من ذوي النعمة، كما مكتوب على بطاقته بأنه تاجر. واتصلت به. وأخذنا الحديث شرقاً وغرباً.
عرفت أنه متزوج، وعائلته معه ببغداد، وأنه يتاجر بالأشياء التي تستخدم في عاشوراء والمناسبات الحسينية كالسلاسل التي يستخدمها بعض رجال الشيعة في عاشوراء لضرب ظهورهم، والأقمشة التي تستخدم في الرايات وكتابة الشعارات، والمواد الغذائية التي تُستهلك في تلك الطقوس وأشياء أخرى لم يفصح عنها.
فكرت أول الأمر أنه الرجل الخطأ، فهو بلا شك متدين وغارق في الدين حتى أذنيه، ولم أكن أعرف أنه غارق في المتعة والفسق.
واعدني، والتقيت معه في مطعم (السيسبان)، وهو من المطاعم الحديثة في منطقة الجادرية. هناك عرفت، من خلال الاهتمام به، أنه معروف لديهم. كانت أمي فرحة جداً، ويبدو أنها حدثت عشيقها عن ذلك، لأنه كان ينظر لي وأن أستعد للخروج بعين غيورة لكنه لم يقل شيئاً ولم يسأل.
ذهبت بالتاكسي إلى هناك، وفي تلك الأمسية تحدث معي بصراحة شديدة بأنه يحبني، ويود الارتباط معي، لكن ليس بشكل رسمي، لأنه لا يستطيع ذلك علانية، وأنه سيدللني وسيغرقني بالمال والهدايا والثياب إذا ما وافقت على أن تكون علاقتي معه سرية. في تلك الأمسية نقدني خمسمائة دولار.
كانت أمي تتصل كل ربع ساعة سائلة أين أنا؟ وأنا أتحجج بأني عند صديقتي، وأني سأعود قريباً. كان هذا ضمن اتفاقنا ولعبتنا مع الحاج آدم العراقي، فبعد كل اتصال كان هو يزداد حرارة وإعجاباً وتعلقاً، مقدراً كذبي من أجل البقاء معه.
في نهاية السهرة اتصل هاتفياً بسائقه، وطلب إيصالي إلى حيث أريد، وفعلاً، بعد دقائق جاء شاب مفتول العضلات إلى طاولتنا التي كانت في زاوية منفردة شبه معتمة وأبدى استعداده للخدمة، وهكذا أوصلني الشاب إلى منطقتي في بغداد الجديدة، لكني نزلت عند رأس شارعنا.
في البيت كان الجميع ينتظر بلهفة. أمي أخذت حقيبتي مباشرة وكأنها تعرف أنه سيمنحني مالاً، فأخرجت الدولارات وأخذت تعدّها. عشيقها سألها

عن الكمية، فقالت له لا بأس لأول لقاء. ودخلا غرفتهما.
في الأيام التالية كنت أتصل معه ويتصل معي عبر الهاتف، لكني كنت أتمنع عليه ولا أستجيب لمقابلته. طبعاً كل ذلك بتخطيط من أمي وعشيقها، إلى أن غضب مني، عندها اتفقت معه على اللقاء. أرسل سائقه الذي انتظرني عن رأس شارعنا أيضاً، لكنه اتصل خلال ذلك قائلاً بأنه لا يستطيع الخروج علانية دائماً لأن وضعه حساس، وإنه ينتظرني في مكتبه الذي يقع في إحدى البنايات، فارتبكت، وطلبت من السائق إرجاعي إلى البيت.
حين دخلت البيت امتقع وجه أمي وعشيقها، فأخبرتهم بأنه يريدني الذهاب إليه في مكتبه. ظلت أمي وعشيقها صامتين. دخلا غرفتهما وبعد دقائق خرجت أمي طالبة مني الذهاب معها إلى إحدى الطبيبات لرتق غشاء البكارة الممزق.
كانت عملية بسيطة. بقيت لأسبوع في البيت. لا أجيب على اتصالاته، إلى أن التأم كل شيء. عندها بدأت أجيب على اتصالاته، مؤكدة بأني بنت عائلة كريمة ومحافظة، وأن أمي وأهلي لا يقبلون بخروجي هكذا، وأني لولا حبي له لما خرجت معه، وأنا لستُ فتاة رخيصة يمكن شرائي بماله، وكل ما يمكن أن أستخدم من كلمات الشرف والعفة والتربية والأصول الدينية والاجتماعية.
كنت أحسه من خلال صوته يتلعثم ولا يستطيع سوى تقديم التبريرات والوعود بالحفاظ عليّ، وأن هذا الموقف زاده حباً لي وتعلقاً وشوقاً، لأنه بهذا سيكون مطمئناً للفتاة التي يحبها ويريد أن يكون معها. طبعاً أمي كانت تستمع لكل ما يدور بيننا من كلام.
وأخيراً اشترت لي جهاز هاتف محمول من النوعية الجيدة التي يمكن أن يسجل الأصوات. وطلبت مني أن أسجل كل ما يدور بيننا من أحاديث، بل وأكدت لي بأن أدفعه لمضاجعتي من خلال التلفون. وهكذا أخذت أتصل معه في أوقات مختلفة وأهيئ الجهاز للتسجيل، ثم أبدأ ببث شوقي وهيامي، ثم أسأله أين هو وماذا يفعل الآن، وماذا يلبس، وكان هو يجيب ثم يسألني الأسئلة نفسها، وشيئاً فشيئاً تبدأ المضاجعة من خلال الهاتف. تكرر الأمر مرات عدة. أخيراً طلبت أمي مني أن ألتقي معه، والذهاب إلى شقته وتركه يفعل كل شيء.
وافقت على طلبه باللقاء معه في مكتبه. وكالعادة جاء سائقه إلى شارعنا وصعدت معه. في المكتب الكبير رأيت الجدران مليئة بالآيات القرآنية

والشعارات الدينية.
كان المكتب واسعاً جداً، لكنه كان في تلك الساعة خالياً، ووجدت أنه هيأ كل شيء. كانت هناك طاولة عليها صينية مليئة بأنواع اللحوم المشوية من كباب، دجاج، عرائس اللحم، والمقبلات المختلفة وأنواع العصائر والفواكه، وانتبهت إلى أنه لم تكن هناك مشروبات كحولية. كما كان قد أحضر لي هدايا من أفخر أنواع العطور، وحقيبة جلدية يدوية من الماركات الثمينة. أحسست في داخلي بتعاطف معه، وإحساس جميل بأنه يحبني فعلاً، وساءني أني أخطط مع والدتي وعشيقها للإساءة إليه وابتزازه.
جلسنا في المكتب، ثم دعاني إلى المائدة فأكلنا، وشربنا من العصائر المتنوعة. كان حديثه كله يدور عن حبه لي، وسعادته في لقائي ذلك اليوم عند دكان صاحب اللبان الكردي. أخذ يضمني لصدره ويقبلني، وأخذ يسألني عن مذهبي.
بعد ذلك أخذ يحدثني عن ظروفه، وأخلاقه، وأنه يريدني بالحلال، وأنه يستحرم حتى هذه الجلسة معي، ولكي نأخذ راحتنا عليّ أن أردد كلمات القبول بالمتعة معه على سنّة الله ورسوله، كي تكون هذه الجلسة مباركة. لم أفهم مقصده بالكامل. وبما أنه أبدى طلبه بهدوء ودونما اصطناع، فرددت ما أملى عليّ من كلام، لا سيما وأن أمي قالت لي نفِّذي ما يطلب منك. كان هناك صوت لأناشيد حسينية يأتي من جهاز بعيد وبصوت خافت.
في أقصى المكتب كانت هناك غرفة فيها تلفزيون وأثاث من النوع الفاخر وأريكة يمكن فتحها لتتحول إلى سرير نوم عريض. أخذني إلى هناك وأغلق جميع الأبواب الخارجية والداخلية. بدأ يضمني إلى صدره ويقبلني من فمي وصدري، وبدأ يعريني من ملابسي. كنت أتجاوب للمساته برغبتي لأني كنت مثارة أيضاً، وكذلك تنفيذاً لأوامر أمي.
وأخيراً صرت بين يديه عارية بالكامل. ألقاني على السرير وجلس بين فخذي وبسرعة فائقة اخترقني. ارتسمت علامات الارتياح الممزوجة بالشهوة الجامحة حينما لاحظ دمي النازف من بين فخذي. كنت طائعة لكل ما يريد لكني كنتُ خائفة.
لكني لا أعرف كيف تحول هذا الرجل المهذب والعاشق الولهان إلى وحش شرس. كان عارياً مثلي، لكنه فجأة ترك السرير لينزع الحزام عن بنطلونه الملقى جانباً وأخذ يضربني، ويصيح: يا عاهرة.. يا حقيرة. يا سافلة.. أنتن يا بنات حواء الحقيرات.. أخرجتمونا من الجنة.. كان يجلدني بقوة.. كنت أصرخ

مرعوبة، أتوسل إليه أن يتركني. كنت أبكي وأصرخ، لكن ما من مجيب.
فجأة خرج مهرولاً خارج الغرفة، عارياً. بعد قليل عاد حاملاً قطعتين من السلاسل الملفوفة والمربوطة بمقبض خشبي. ألقى بواحدة إليّ وصاح فيّ: كفِّري عن فسق أيتها الفاجرة.. وراح يضرب ظهره ويطلب مني أن أقلده.
بقينا على تلك الحالة لربع ساعة تقريباً، أحسست أن ظهري قد تمزق من أثر الضرب وبدأ جلدي ينسلخ عن مكانه. فجأة ألقى بالسلة من يده، وأخذ الثانية من يدي. ثم احتضنني وأخذ يبكي. أخذ يبكي بكاءً مراً كالمنكوب. أحسست أنه في عالم آخر، غير منتبه لوجودي. انسحبت من بين يديه. تركني أغادر السرير. كان ينظر إليّ بعيون منكسرة. جمعت ملابسي، وأخذت ألبسها.
كان الدم قد لوث فخذي. لبست ملابسي واتجهت للخروج. فجأة قام وهو بكامل عريه. اتجه لملابسه وأخرج من جيبه رزمة من الدولارات، ألقى بها إليّ. لم أشأ أن آخذ أي شيء. كنت أفكر بالفرار فقط، لكنني تذكرت أمي وعشيقها فأخذت الرزمة. كان قميصي في بعض الأماكن قد بدأ يلتصق بظهري. لا أعرف كيف وصلت إلى باب المكتب ثم إلى الشارع. لم أكن في كامل هندامي. أوقفت تاكسي وطلبت منه أن يقلني إلى منطقتنا.
حين وصلت الدار كنت على وشك أن يغمى عليّ. فتحت أمي الباب. ما أن رأتني حتى أدركت بأن شيئاً ليس على ما يرام قد حدث. استمعا إليّ بهدوء. أمي أخذت رزمة الدولارات وعدّتها مباشرة وبهدوء شديد. قالت لعشيقها إن المبلغ ثلاثة آلاف دولار. نزعت عني ملابسي، وأدخلتني الحمام لأنظف حالي. وفرشت لي كي أنام، ثم أخذت جهازي المحمول.
عند المساء اتصلت أمي به من خلال هاتفي المحمول. أخذت تحدثه بهدوء في بداية الأمر. كنت أسمعها تقول له بأني حدثتها بكل شيء، وبأدق التفاصيل، وأن عليه إصلاح الوضع، إن عليه أن يتزوجني. وبدا أن الرجل كان قد رفض، أو أنه أنكر، لأن صوت أمي بدأ يتعالى ويهدد، ويخرج عن سكونه، ثم تعالى صوتها مهدداً: أنت لا تعرفنا جيداً، أولاً: إن البنت قاصر فهي لم تبلغ الثامنة عشرة من العمر بعد. ثانياً: إنك اغتصبتها ويمكننا الآن أن نذهب إلى الشرطة لنبلغ عنك.
الرجل من طرفه أغلق الهاتف، لأن أمي بدأت تشتم بكلمات بذيئة لا يمكن أن يوجهها شخص لآخر بسهولة، لا سيما وأن أمي تمثل دور الشرف.
عند المساء طرق بابنا شخص ما، فتحت أمي وعشيقها الباب. سأل الشخص عني فقالت أمي إني نائمة، فقال الرجل إنه من طرف الحاج آدم العراقي،

وإنه أرسل لي عشرة آلاف دولار تعويضاً، وإنه بذلك أوفى ما بذمته.
لم تقل أمي شيئاً. أخذت رزمة الدولارات بصمت، لكنها علقت قبل أن يذهب الشخص المرسل قائلة:
- قل للحاج آدم العراقي إن أعراض الناس لا تباع وتشترى بهذا الرخص.. وأن عليه أن يدفع عشرة أضعاف هذا الذي أرسله، وإننا سوف لن نسكت. سنرسل إلى عشيرتها، ليتحول الأمر إلى مسألة عشائرية.
نظر الشخص المرسل إلى أمي وعشيقها، وكأنه عرف مع من هو يتعامل، ثم علق بلهجة مبطنة بالتهديد:
- يبدو أنكم لا تعرفون من هو الحاج آدم العراقي. نصيحتي لكم.. اقبلوا بما أرسله، فهو كريم معكم، وإلا ستندمون على يوم ولادتكم.
فصرخت أمي فيه:
- هل تهددنا؟ نحن أيضاً نستطيع أن نهدد، بل وأي تهديد..
لم يعلق الشخص الآخر، وإنما ذهب بهدوء مثلما جاء، بينما أغلقت أمي الباب وعادت مع عشيقها يتدافعان من أجل عدّ رزمة الدولارات.
مضى أسبوعان على الحادث، وذات مساء خرجت أمي وعشيقها من غرفتهما. جلسا في الصالون. أخذت أمي الهاتف المحمول واتصلت بالحاج آدم العراقي، ويبدو أن الرجل أغلق التلفون في وجهها. حاولت ثانية فأغلق الهاتف أيضاً، وفي المرة الثالثة يبدو أنه كان عصبياً لأني فهمت ذلك من نبرة كلام أمي التي بدأت تهدده قائلة:
- يا حاج آدم.. نحن مر لحمنا. لسنا ممن تأكل لحمهم وتلقيهم عظاماً. لحمنا مر. لدينا تسجيلات بصوتك وأن تضاجع ابنتنا بالتلفون. كل شيء مسجل. وإذا لم تدفع عشر أضعاف المبلغ الذي أرسلته سنبث هذه التسجيلات، ونفضحك يا خادم المواكب، يا قائد العراق الجديد. لقد شاهدناك تروي مفتخراً عن تضحياتك، وسجنك، واستشهاد عائلتك، وهجرتك لسنوات إلى إيران وسورية، وتبرعاتك اليوم للمواكب الدينية، وللأيتام، وعن حزبكم الذي سيقيم الجنة على الأرض. سنفضحك. ونفضح ما فعلته..
بدا أنه استمع لها لأنها تحدثت بشكل متواصل، وانتبه إلى تهديدها بأن هناك تسجيل حقيقي له، لكنه لم يتحمل فأغلق التلفون، واستمرت أمي تصرخ فيه: لا تغلق التلفون في وجهي يا حقير.
في اليوم التالي، وعند فطور الصباح سمعنا طرقاً على الباب. ذهبت أمي لتفتح الباب. سمعنا صوتها يتحدث بشكل عالٍ. خرجت مع عشيق أمي فوجدنا السائق نفسه وبيده كيس ملفوف، وكان يحاول تهدئة أمي قائلاً:

- يا حاجة، الحاج آدم العراقي لا يريد مشاكل، ويريد حل الأمور بالتي هي أحسن. وهل يرسل إليكم عشرين ألف دولار إضافة إلى العشرة التي أرسلها. أنت تعرفين أن أية امرأة اليوم يتم تزويجها بألفين أو ثلاثة آلاف دولار، بينما هو أرسل لكم لحد الآن ثلاثين ألف دولار. فقط هو يرجوكم إنهاء الموضوع بدون فضائح.

يبدو أن موقف الحاج آدم العراقي اللين أثار شهوة أمي في الابتزاز أكثر، فألقت خطبة روزخونية عن الشرف والعرض، والنساء المحصنات، وشرف العراقيات الذي صار يباع ويشترى. ظل السائق يستمع إليها بهدوء، ثم قال لأمي:

- اسمعيني جيداً. الحاج آدم العراقي سأل عنك جيداً. وعرف المستشفى التي تعملين فيها. واتصل هناك. ويعرف كل شيء عنك، فلا ترفعي صوتك عالياً. هو يريد إنهاء الموضوع بهدوء.

كلمات السائق استفزت أمي فأخذت تتحدث بما يشبه الصراخ:

- هل تهددني بالحاج.. والله زمان.. في زمن المقبور الذي لا نذكر اسمه كان الفاسد واضحاً والمؤمن واضحاً.. اليوم الكل صاروا مؤمنين وحجاج بيت الله ومن ذوي اللحى. صرنا لا نعرف المؤمن الحقيقي من الفاسد المتدين. الكل اليوم يدعي التضحيات. هل تعرف أن مسؤول الجيش الشعبي في شارعنا هذا أيام المقبور؟ إنه اليوم أيضاً من الحجاج الجدد. بل وصار لديه شهداء من عائلته، وإنه كان يأوي المناضلين في بيته، وقصص عجيبة أخرى، فلا تحدثني بلهجة التهديد.

لم يقل السائق شيئاً. فقط نظر إلى أمي نظرة غريبة، ثم مضى صامتاً.

في ذلك المساء سمعنا صوت نفير سيارات وجلبة في شارعنا. فجأة سمعنا رفساً بالأرجل وطرقاً عنيفاً على بابنا. انفتح الباب بقوة ودخل أكثر من عشرة رجال مدججين بالأسلحة. وطوقوا الدار، ثم دخل ضابط برتب ونجوم على كتفيه.

أحسست برعشة باردة تشلّ جسدي ومشاعري، وكأنني أرى منظراً سينمائياً. أمي وعشيقها شلهما الخوف. لم أسمع الذي قالته أمي، لكني سمعت الضابط يجيب:

- إنكما متهمان بمساعدة الإرهابيين. وإنكما مشمولان بالمادة 4 إرهاب.

أمر بإلقاء القبض عليهما. توجه اثنان نحوي أيضاً إلا أنه قال لهما:

- هذان فقط. هي غير مشمولة بالأمر.

لا أجد الكلمات التي تعبر عن الحال التي صرتُ فيها. رأيتهم كيف

يضربون أمي وعشيقها أمامي ضرباً مبرحاً. كانت الدموع تسيل من عيني دونما بكاء.

كنتُ أنظر إلى مشهد وكأنه بعيد عني وغريب، مشهد أشبه بالحلم غير واقعي. كانت ثمة مشاعر متضاربة تجتاحني، مشاعر هي بين التشفي لأنها دمرت حياتي وأحالتني إلى عاهرة تباع وتشترى، وبين الإشفاق لأنها في كل الأحوال أمي، ولا أعرف غيرها في هذا العالم.

بقيت وحدي في البيت. كنتُ تائهة لا أعرف ماذا أفعل. لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت وأنا في حالتي تلك. كان الباب الخارجي ما زال مفتوحاً، وكأنني في حلم بعيد، رأيت الحاج آدم العراقي يدخل إلى باحة الدار يتبعه السائق. فجأة وقف وأشار إلى السائق بالخروج والانتظار عند الباب وعدم السماح لأحد بالدخول.

كنت في الصالة أنظر إليه وهو يتقدم نحو الداخل. صار في الصالة. نظر إليّ بعتاب ممزوج بغضب. تلفّت حوله. اقترب مني. أخذني من يدي إلى غرفة النوم الجانبية. ألقاني على ظهري على سرير أمي. رفع ثوبي ونزع عني لباسي الداخلي. فكّ عن نفسه حزامه وسرواله، ثم أطبق عليّ داخلاً فيَّ بعنف شديد. هل تصدقون أني في تلك اللحظات عرفت النشوة ووصلت الذروة لأول مرة، ووجدت نفسي أصرخ فيه: أحبك.

انتبهت إلى أنه سحب نفسه عند القذف، فلم يقذف بداخلي، وإنما لوثني ولوث الفراش. لم يقل شيئاً. تلفّت حوله. رأى جهاز هاتفي المحمول. أخذه. التفت إليّ وبصق عليّ باحتقار شديد. وخرج.

مضى أسبوع على اعتقال أمي وعشيقها، لكن خلال هذا الأسبوع تغيرت مسارات حياتي. لا أعرف ما الذي جرى لي. ربما تلك اللحظات من النشوة غيرت من شخصيتي وكياني. أحسست بأنني صرت خفيفة. ما كان يعني لي شيئاً مما يجري، وماذا سيأتي.

في اليوم الثاني خرجت من البيت. كان الجيران ينظرون إليّ ما بين متعاطف وبين غاضب. في منطقة شارع الربيعي التي كثيراً ما أتجول فيها، صادفت فريقاً إذاعياً يجري مقابلات مع السابلة. ألحّ الصحافي أن يجري معي لقاءً.

سألني عن علاقة الصداقة بين الرجل والمرأة، وهل توجد فعلاً صداقة بدون أغراض أخرى؟ أجبت بأني لا أعرف ذلك لأني لم أصادق أحداً. بعد ذلك دعاني الصحافي إلى صحن من المثلجات الطيبة. جلسنا معاً، وأخذ يبدي إعجابه بجمالي وبخفة دمي، سألني عن عملي، فلما أجبته بأنه لا عمل

لديّ، فسألني مباشرة، وبشكل مفاجئ:
- لماذا لا تعملين مذيعة في الإذاعة أو التلفزيون؟
ضحكت من كلامه وقلت:
- أنا لا خبرة لي في هذا المجال.
ضحك عالياً وعلّق:
- من له خبرة في هذا المجال؟ هل تعرفين فلان الفلاني، المقدم المعروف في قناة الدولة الرسمية كان حلاقاً، وفلانة طبيبة بيطرية، وفلانة لم تنهِ الابتدائية، وفلان الفلاني المعروف كان يبيع لديه دكان. كل الذين ترينهم في التلفزيون ليس لديهم أية علاقة بالإعلام.. أنا نفسي خريج تجارة، الصدفة وحدها قادتني للعمل في الإذاعة. الأمر لا يحتاج إلى خبرة، الخبرة تأتي لاحقاً، الأساس الشكل المقبول وخفة الدم، وبعض التنازلات.
تحدث كثيراً. لم أفهم مما قاله الكثير، لكني فهمت بأني مؤهلة بنجاح للعمل في مجال الإذاعة. في اليوم نفسه دعاني للذهاب معه إلى الإذاعة. أعجبتني الفكرة، وفعلاً ذهبت معه إلى المحطة، ووجدت أن الأمر ليس بالصعب. أجرى لي اختباراً بسيطاً، ويبدو أنني لم أكن بالمستوى اللائق، لكنه برغم ذلك أصرّ على أنني جيدة، واتفقنا أن نلتقي في المساء.
الغريب أنني لم أتذكر أمي وعشيقها خلال ذلك اليوم، إلا حينما عدت للبيت. لا أعرف لماذا كان تفكيري يُشل حينما أريد استرجاع كل الذي جرى. كنت عاجزة عن التفكير بأمي وعشيقها.
في المساء التقيت بالمذيع آدم السعيد. أخذني بسيارته إلى منطقة على القناة وفي زاوية مظلمة أوقف سيارته هناك. بدأ يحدثني عن إعجابه، وأخبرني بأنه سيرفعني إلى قمة النجاح، ثم بدأ يداعبني. لم أمانع، ومتى مانعت في حياتي أصلاً؟ وفي السيارة عرّاني من ملابسي، وضاجعني. لا أدري لِمَ لم أشعر باللذة كتلك التي شعرت فيها مع الحاج آدم العراقي.
في اليوم التالي قدّمني آدم السعيد إلى المسؤول عن الإذاعة الذي أعجبته فوراً، فأصدر أمراً بتعييني وبمبلغ لا بأس فيه، وطلب من آدم السعيد أن يعدّ لي برنامج ما يطلبه المستمعون على أن يبث في الوقت الذهبي. وهكذا انطلقت حواء البغدادي إلى عالم الشهرة.
الغريب أن آدم السعيد اختفى، وبعد أيام صادفته في ممر الإذاعة لكنه تجنبني، وحينما أوقفته لأسأله عن سبب هروبه مني قال لي مرتبكاً إن مسؤول الإذاعة يريدني له شخصياً، ورجاني أن لا أسيء له أمام المدير المسؤول لأنه ساعدني وعرفني عليه، وهو الذي فتح لي باب الشهرة. وفعلاً

كان البرنامج ناجحاً جداً، ولم يكن يحتاج لخبرة ومهارة فهو لا يعدو تلقياً لاتصالات المستمعين والإجابة على ثرثرتهم بشكل لبق ومحبب.
بعد ثلاثة أسابيع، وعند المساء، حينما عدتُ، وجدت الباب مفتوحاً. دخلت مسرعة فوجدت أمي ترقد على سريرها. لم تكن أمي بل شبح يحمل ملامح أمي. اقتربت منها. فتحت عينيها، رأتني، ثم بدأت الدموع تنهمر من عينيها. مدّت يدين مرتعشتين نحوي لاحتضاني، فألقيت بنفسي محتضنة إياها، وأنا أبكي، وكأني اكتشفت أمي لأول مرة.
سألتها عن عشيقها فبكت وهي تقول:
- مات تحت التعذيب.
نظرت في البعيد، وكأنها ترى مشهداً بعيداً لا يراه سواها، وأخذت تتحدث وكأنها تهذي:
- كانوا يعذبوننا ويسألوننا عن الإرهابيين الذين نخفيهم في بيتنا، وعن الدول التي نتعاون معها، وعن كمية المبالغ التي استلمناها من دول الجوار؟ لا يصدقون أننا لا علاقة لنا بكل هذا. نقسم لهم بالقرآن وبكل المقدسات، لكنهم كانوا يهزأون من قسمنا. اتهموني بأني أدرب النساء على الانتحار، وأني أردت اغتيال بعض الشخصيات السياسية الإسلامية الحاكمة من خلال إرسال الفتيات الجميلات إليهم. حينها ارتعبت لأني اعتقدت أنهم سيأتون بك. كانوا يصرون على تهمهم لنا بالرغم من أنهم يعرفون أنها كاذبة. بعد يومين من الضرب والشتم والسخرية، عرفنا أننا لسنا في دائرة حكومية وإنما في مكتب ما.
بعد ذلك، حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ جاء رجال آخرون، وأخذونا إلى مكان آخر، بدا مهجوراً وخالياً من أي إنسان. هناك عذبونا بشكل مرعب. أجبرونا على أن نعترف بأشياء لم تخطر على بال أحد. أنت تعرفين أننا لا نهتم بالسياسة، بينما سجلوا اعترافات لنا بأننا على علاقة بأشخاص ذكروا أسماءهم، لكننا لا نعرفهم.
سأروي كل شيء يا حواء. أنا سأرحل من هذه الدنيا. سأعترف لك بأشياء لا تعرفينها سابقاً. أريد أن أكفّر عن ذنوبي. لقد ظلمتك يا ابنتي. ظلمتك جداً. ولا أدري كيف سألاقي ربي وأنا محمّلة بكل هذه الذنوب.
أنت لم تسأليني عن أبيك أبداً. سأخبرك. إنك يا ابنتي بنت رجل طيب. اسمه آدم كاشف الليل، وهو من عائلة متدينة ومعروفة، لكني لم أكن أحبه. لقد زوجني أخي له لأنهما كانا أصدقاء. كانا كلاهما من الملتزمين دينياً، ولم يكونا يستقران في مكان. كنت وحدي دائماً.

بعد ولادتك بأشهر قليلة دخل رجل ما حياتي. كان يتبعني أينما ذهبت، ويسمعني كلاماً لطيفاً عن جمالي، وهيامه وشوقه إليّ. لم أستجب أول الأمر، فأنا أيضاً أنحدر من عائلة ملتزمة، وبعد وفاة والديّ عشت مع أخي المتدين أيضاً، لكن هذا الرجل يبدو كان يعرف وضعي، ووحدتي، وغياب زوجي وأخي الدائم عن البيت. ولا أدري كيف استطاع أن يدخل إلى نفسي، ويشوش عليّ مشاعري وأفكاري.

كنت أستغرب جرأته. كان لا يهاب أي شيء. لا الحكومة ولا كلام الناس. ذات يوم شتائي تعرضت أنت لحمى. كان عليّ الذهاب إلى العيادة. رأيته يتبعني. وفي المستشفى ساعدني جداً. يبدو أنه كان معروفاً لديهم، فقد دخلت بدون الوقوف في الطابور، واهتموا جداً بفحصك. بعدها أوصلني إلى البيت، وقبل أن يمضي قال إنه سيزورني الليلة في تمام الساعة العاشرة، وعليّ ترك الباب مفتوحاً. هكذا ببساطة.

لم أكن أعرف ما أفعل. كنت خائفة. كنت ما بين رعبي من الخيانة وتلهفي للجنس، لكني أغلقت الباب ولم أفتحها. كنت في صراع مع نفسي، وقبل أن تكتمل العاشرة بدقيقتين فتحت الباب. كنت حينها عند الباب حينما دخل مثل اللص إلى الدار. شلني الخوف والرغبة. أخذني مباشرة إلى غرفة النوم، وهناك على الأرض التي يغطيها السجاد ضاجعني.

لا أخفيك فلقد أحببته. صرت أنتظر وصوله ليلياً، ثم بدأ يسألني عن زوجي، عن أبيك، وأين هو ولماذا لا يأتي. كنت أختلق الأعذار بأنه يعمل في مدينة أخرى. سألني كيف لا أخاف أن يفاجئنا ذات يوم. فقلت له بأني سأترك المصباح الخارجي فوق الباب دلالة على عودته. لم أكن أعرف بأن هذا الرجل هو ضابط أمن، وأنني كنت الطعم لكي يعتقل أباك وخالك. نعم. فقد تركت المصباح منيراً دلالة على وجود أبيك.

وفي تلك الليلة، زارنا خالك أيضاً، وعند منتصف الليل، سمعنا طرقاً شديداً على الباب. حينما خرجت داهم البيت بدون استئذان عشرة من رجال الأمن. ألقوا القبض على أبيك وخالك، وحين خرجت مولولة أتبعهم في الشارع رأيت عشيقي يصعد سيارة الأمن معهم. خالك مات في التعذيب، وأبوك يرقد في قبر جماعي، فهذا ما عرفته بعد سقوط النظام.

المهم. تم اعتقالي أنا أيضاً، لكن عشيقي تدخل من أجل ألاّ أسجن. بقيت عندهم في المعتقل لأسبوعين. مرّ عليّ جميع الرجال هناك. حتى المنظف. كنت أنت معي أيضاً. كنت طفلة رضيعة. حينما خرجت من المعتقل كنت مرعوبة أن أفقدك أنت أيضاً. فكرت أن أقتل نفسي، لكن لمن أتركك؟

بعد أسابيع عرفت أني حامل. بعت كل ما أملك من أجل إجراء عملية إجهاض. انتقلت إلى بغداد. فنحن في الأصل من الحلة.
الطبيبة التي أجرت لي عملية الإجهاض في العيادة تعاطفت معي، بعد أن رويت لها قصتي، ووجدت لي عملاً في المستشفى التي تعمل فيها نهاراً.
الحياة يا ابنتي جعلتني أكفر بكل القيم وبالحب والأخلاق، واجتاحتني رغبة في الانتقام من الرجال.
لا تثقي بأحد يا ابنتي. أنا أخطأت بحق والدك وخالك. لم أصن نفسي، تبعت شهوتي، وجررت الموت على زوجي وأخي. حطمت حياتي بنفسي، وحطمت حياتك أيضاً. اغفري لي يا ابنتي قبل أن أموت. انتبهي لنفسك.
الأموال التي جنيتها عن طريقك تحت البلاطة التي تحت هذا السرير. لا تثقي بأحد.
قالت ذلك وارتعش وجهها وكأنها ترى شيئاً مرعباً. وفجأة سكنت.
هل تصدقون إذا قلت لكم إنني إنسانة غريبة الأطوار؟ لم أذرف دمعة واحدة. اتصلت ببعض زملائي في العمل وبمدير الإذاعة وأخبرتهم بوفاة أمي. وفي الحال جاءوا جميعهم، وقاموا بكل الإجراءات اللازمة من نقل الجثة إلى المستشفى ومن ثم مراسيم الدفن. لم أقم مجلس الفاتحة، فليس لي أحد. في الإذاعة جاء الزملاء وعزوني بالوفاة.
قررت بعدها الانتقام من الحاج آدم العراقي. مرّ أكثر من عام على وفاة أمي. صرت معروفة ومشهورة. وحصلت على لقب معبودة الجماهير تشبهاً بفيلم معبودة الجماهير لشادية وعبد الحليم حافظ. كما صرت العشيقة الرسمية لصاحب الإذاعة، ومن خلال عملي الإذاعي عرفت الكثير عما يدور من صراعات سياسية، وعرفت النفاق السياسي.
صاحب الإذاعة من طائفة أخرى. وهو يكره الأحزاب الإسلامية التي تشكل الأكثرية. عندما رويت له قصتي وقصة أمي قرر أن يساعدني بالانتقام لها. أخذ مني كل المعلومات عن الحاج آدم العراقي.
بعد أيام جاء إلى غرفة التسجيل الإذاعي ومعه ثلاث فتيات، عرفتهن مباشرة، فواحدة منهن ممثلة شابة معروفة، وواحدة مذيعة في إحدى المحطات التلفزيونية والثالثة مقدمة برامج في محطة تلفزيونية أخرى.
في ساعات عرفت منهن ما لا يمكنني معرفته وحدي خلال سنوات. تحدثن عن أشياء بخصوص هؤلاء المسؤولين الجدد لا يمكن أن يصدقها العقل. تحدثن عن لياليهن وسهراتهن في بيوت المسؤولين في المنطقة الخضراء، وعن شبكات الدعارة التي يحميها بعض الضباط من ذوي الرتب العالية في الأمن

والداخلية، عن الأموال التي يحصلن عليها، وعن الأرباح التي يحصدنها من خلال وساطتهن لدى هؤلاء الضباط والشخصيات الحكومية.

حينما سألتهن إن كن يعرفن شخصاً اسمه الحاج آدم العراقي، فضحكن وقلن هذا الذي يتاجر بالمقدسات وبمشاعر الناس الدينية. هن يطلقن عليه اسم (حجي متعة)، لأنه لا يزني وأنه لا يكف عن زواج المتعة.

كل واحدة منهن تحدثت عنه بطريقتها لكن جميع قصصهن واحدة، إذ تزوجهن زواج متعة ودفع لهن مبالغ جيدة، وقبلن بذلك. فرويت لهن قصتي، وما فعله بأمي وعشيقها. استغربن، وأكدن بأنه لا يملك النفوذ الحكومي بحيث يقوم بالذي قام بفعله مع أمي وعشيقها. وقررن الاستفسار عن الموضوع.

بعد أيام دعونني إلى سهرة في بيت أحد المسؤولين في المنطقة الخضراء، فسألتهن عن علاقتهن بعشيقي صاحب المحطة فضحكن وأخبرنني بأنه إنسان محبوب جداً، وقد ساعدهن جميعاً في بداية مشوارهن الفني، وقد كنّ جميعهن عشيقاته، وهن الآن يحاولن رد الجميل له من خلال تسجيل ما يدور في الحفلات، وتصوير ما يمكن تصويره أيضاً عن طريق أجهزة الهاتف المحمول، وهو يقوم بعد ذلك بتحويل هذه التسجيلات على أقراص، ولا نعرف ماذا يفعل بها، فقد سألناه ذات مرة عن ذلك فأجاب بأنه يحتفظ بهذه التسجيلات للأيام السود، إذا ما أرادوا البطش فيه. إحداهن قالت إنها سمعت بأنه يبيع ذلك للسفارات الأجنبية، أو للأميركية بالتحديد. كنت خائفة بالذهاب معهن، لكني كنت أريد الانتقام من الحاج آدم العراقي.

في أحد بيوت القادة العسكريين كانت أول سهرة لي. كان هناك ثلاثة رجال، راعي السهرة وضابطان كبيران جداً، أحدهما يظهر دائماً في التلفزيون. خلال تلك الجلسة أحسستُ بأني أعجبت راعي السهرة، الذي شكر صديقاتي لأنهن أحضرنني معهن. أعطاني أرقام هواتفه الخاصة وأخذ رقم تلفوني. في نهاية السهرة أعطونا خمسمائة دولار لكل واحدة منا.

لم تكن الأموال هي التي تثيرني وإنما شهوة الانتقام. في اليوم التالي جاءني اتصال منه. كان صوته رقيقاً ومرحاً. امتدحني كثيراً، ثم طلب مني أن أزوره وحدي في بيته، وأنه سيرسل سيارته المصفحة الخاصة كي تقلني. حاولت التملص منه لكن دون جدوى. وهكذا اتفقت معه على وقت محدد عصر ذلك اليوم، وفعلاً أرسل سيارته التي أقلتني من مكان قريب من الإذاعة.

في بيته سقطت هيبة هذا القائد العسكري، الذي بعد أن اختلى معي

أخذ يقبلني ويضمني ثم أخذني إلى السرير، لكنه لم يستطع أن يدخلني برغم محاولاته المتعددة والمختلفة، فادّعى بأنه تعبان. حاولت أن أخفف عنه وأن لا أحرجه، فارتاح لموقفي منه.

خلال جلستنا تلك حكيت له عن كل ما جرى معي ومع أمي وعشيقها، فأخذ هاتفه واتصل بمختلف الجهات. أعجبني فيه أنه اهتم بشكل حقيقي بالموضوع، لكن النتيجة كانت مرعبة، إذ اتضح بأن الحاج آدم العراقي ليست لديه تلك العلاقات المهمة بالجهات الحكومية الكبيرة بحيث يقوم بالذي قام فيه، وإنما لديه علاقة بأحد الضباط الذي ساعده كمحاولة تخويف وترهيب لأمي وعشيقها من أجل الحصول على الهاتف الذي تم تسجيل مكالماته معي فيه، وفعلاً قام ذلك الضابط الذي يعمل في أجهزة الداخلية بتلك المحاولة أثناء واجبه.

بعد أن تم اعتقال أمي وعشيقها وأخذهما إلى مكان ما في الداخلية، وعند انتهاء دوام هذا الضابط ومن معه، فإنه لم يخبر الضابط الذي جاء بعده بما جرى وأن ذلك من باب التخويف والترهيب، إذ قام الضابط الذي تلاه في ذلك الموقع بنقلهم وإحالتهم إلى مكان آخر بتهمة الإرهاب وبالمادة 4، وحينما عاد ذلك الضابط إلى واجبه ثانية أدرك أن الأمر خرج عن يديه ولم يستطع أن يتراجع بسهولة عن استغلاله للوظيفة من أجل تحقيق أمور شخصية، وبعد وفاة عشيق أمي استطاع أن يتدخل من أجل الإفراج عنها بحجة الشبهة.

هكذا ماتت أمي وعشيقها من التعذيب نتيجة مزحة أو بتوصيف آخر استغلال متعمد للمنصب.

تعمقت علاقتي بهذا القائد العسكري. صرنا نتحدث يومياً، وأحياناً أذهب إليه فنتحدث عن مختلف الأمور وكثيراً ما كان يروي لي قصصاً عن الوزراء والمسؤولين تثير العجب، أو ليداعبني فقط. وكثيراً ما كان يضاجعني من خلال الهاتف.

طبعاً، عشيقي صاحب المحطة عرف بذلك، وطلب مني أن أسجل له لحظات مضاجعته لي بالهاتف. رفضت أول الأمر، لكني لم أستطع أن أبقى على رفضي فقمت بالتسجيل له. وحينما سألت عشيقي عن سبب التسجيل له، لا سيما وأنه ليس لديه علاقة مباشرة معه، فأكد لي بأن هذا التسجيل يهم الأجانب جداً.

عشيقي حقود، برغم الطيبة التي يبديها تجاهي. شاهدته في أكثر من مرة داخل المكتب مع شخصيات سياسية معادية للنظام الحالي، ففهمت بأنه

ليس بريئاً كما يبدو، وليس مع الوضع الحالي برغم أنه كثيراً ما يتحدث بنفاق عن التسامح وبناء البلاد.
ليلة أمس اتصل معي صديقي القائد العسكري، وقال لي بأن لديه معلومات مهمة عن الحاج آدم العراقي، وإنه أخبر شخصية سياسية عما فعله هذا الحاج، فطلبت تلك الشخصية أن تسمع مني مباشرة تفاصيل ما جرى، وكنت اليوم ذاهبة إليه حيث قال لي بأنه سيكون قريباً من المكان الذي حدث فيه الانفجار، وكنت هناك على الموعد لكنه تأخر، ولو لم يتأخر لما كنت بينكم الآن. أنا متأكدة بأنه لا يعرف بأني هنا وإلا ما تركني هنا في قاعة التشريح.
قطع حديث الجثة دويٌ هائل جاء من قاعة الثلاجات. دويٌ، أشبه بتداعي الأسرّة النقالة فوق بعضها وتصادمها، وكأنما انهارت الثلاجات وانقلبت إلى الأرض. صمتت حواء البغدادي.
ساد للحظات صمت في قاعة التشريح، وقبل أن تتوجه الجثث إلى النافذة أو الباب زحف الحارس آدم متراجعاً إلى الخلف ثم نهض هارباً إلى غرفته. دخل الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح وظل منقطع الأنفاس عند الباب، لاعناً نفسه الجبانة، وشجاعته المزيفة.
في غرفته أخذ الحارس آدم يفكر في الدوي الذي سمعه قادماً من قاعة الثلاجات، ما الذي يمكن أن يكون؟ الجثث هناك محفوظة منذ فترات مختلفة، لكنها بلا استثناء من الجثث المجهولة التي لم يطالب بها أحد، بل ومعظم هؤلاء من الذين وجدت جثثهم ملقاة في المزابل على أطراف مدينة بغداد، أو من الجثث التي تمزقت إثر الانفجارات اليومية في المدينة، لكن لم يأتِ من يسأل عنها. وبعضها من الجثث التي اغتيل أصحابها بكاتمات الصوت لكن لم يكن بالإمكان تحديد هوية أصحابها، ثم إن هذه الجثث قد تم تشريحها وخياطتها، وبالتالي فهي قد شبعت موتاً، وليست كالجثث التي جاءوا بها هذا اليوم، والتي يمكن لأرواحها أن ترفرف معها لثلاثة أيام كما يقال.
ظل آدم مستغرقاً في مثل هذه الأفكار، لكن الرغبة في معرفة ما جرى في قاعة الثلاجات ظلت تلحّ عليه، إلا أنه بالرغم من ذلك يشعر بالخوف.

(10)

الجثث الهاربة

ظل الحارس آدم عند الباب منقطع الأنفاس. أحس بالحنق من نفسه، ومن إرادته في الإقدام على اكتشاف الأشياء مهما كانت مخيفة، وضعف أعصابه في مواجهة المواقف المخيفة تلك، فها هو للمرة الثانية يذهب زاحفاً إلى قاعة التشريح بينما يهرع كالأرنب المذعور عن أية حركة في الممر، لكن ما جرى من دوي هائل في قاعة الثلاجات كان دوياً مرعباً حقاً.

لم يسترسل في أفكاره طويلاً، إذ سمع باب قاعة التشريح يفتح بقوة، وتخرج الجثث منها. توجهت الجثث نحو غرفته، توقفت عند الباب، لم تصدر أي شيء. أراد أن يرى من البؤبؤ الزجاجي ما يجري في الممر عند بابه، فتراجع للخلف خوفاً حينما شاهد إحدى الجثث تقرب عينها أيضاً من البؤبؤ الزجاجي من جهتها. تراجع للوراء.

أراد التأكد ثانية. نظر من البؤبؤ الزجاجي فلم يرَ شيئاً. سمع ضجيجاً أشبه بمحاولة لفتح نوافذ مقفلة. فجأة، ساد الصمت في الممر من جديد.

ظل واقفاً عند الباب. سأل نفسه: لماذا يخاف الجثث؟ هي لا تؤذي، وهي ليست بشعة أو مشوهة، لا سيما من الأمام، إلا تلك الجثث المتروكة في الثلاجات، فبعضها قد تغير لونه وصار أشبه بالرمادي المائل إلى الزرقة، وفي النهاية فهي جثث، فهل يخافها لأنه يخاف الموت؟ ومن يؤكد أنه أيضاً ليس بميت؟

لا، من المؤكد أنه ليس بميت، لأنه لم يعرف بعد سر الموت؟ هؤلاء قد عبروا إلى الضفة الأخرى، فهم لا يشعرون بالألم؟ تُرى هل الشعور بالألم هو ما يميز الإنسان الحي عن الميت؟ وهو يخاف والموتى لا يخافون، لكن هل فعلاً أن الموتى لا يخافون؟ من قال ذلك؟

هل الوعي بالوجود هو سر الحياة؟ وعكسه هو الموت؟ ومن يؤكد لنا بأن الأموات لا يعون الوجود؟ لكن كيف يعونه وهم تحت التراب؟ أو أنهم رماد نثر في نهر، كما الهنود؟

من المؤكد أن ما يميز حياة الإنسان هو روحه وليس حياة الجسد فحسب؟ وإلا فمن نحن عندما نكون نياماً؟ بل أين يذهب وعينا عند النوم؟ فعلى الرغم من أن وظائف الجسد الأساس تعمل بدقة إلا أن الإنسان ليس هو الإنسان عند النوم؟ وإلا فليسأل كل شخص منا نفسه بعد أن يستيقظ من النوم أين كان هو كإنسان، كوعي وشخصية، وأفكار ومشاعر، خلال ساعات النوم؟

تذكر أنه أجريت له عملية جراحية ذات مرة، وتم تخديره. كان الوقت حينها صباحاً، لكنه استيقظ عند العصر، وكان جسده قد شق وفتحت أعضاؤه وأجريت له العملية. سأل نفسه: أين كان هو خلال كل ذلك؟ لقد عطلوا أماكن الإحساس بالألم في دماغه فلم يشعر بأي شيء خلال فتح جسده، فهل هذا يعني أن الوعي في الجوهر هو وعي الألم والإحساس بالوجع؟ وأين يكون المرء المخدر حينها؟ هل هو جثة حية؟ أو حياة ميتة؟

انتبه الحارس آدم إلى أنه قد هدأ نتيجة هذا الدفق من الأفكار؟ لكن هذا الدفق لم يمنحه الراحة في التأكد مما يجري، هل هو حقيقة أو تهويمات وشطحات وتخيلات لا أساس لها؟

جلس على الصوفة الجلدية لا يدري ماذا يفعل، أراد أن يطرد التفكير عن ذهنه، فأخذ الريموت كونترول وضغط عليه، فلم تظهر على شاشة التلفزيون أية صورة وإنما شاشة زرقاء فقط، ثم فجأة ظهرت صور وكأن كاميرا ما تبث من الممر، فها هو ممر المشرحة الأسفل، ثم رأى الطبيب والمساعد ورجال الحرس الوطني وهم يقفون عند بابه، ينظرون في ما بينهم بإشارات محددة، ثم يطرقون بابه، لا يسمع هو شيئاً من الطرق، وكأنه يشاهد فيلماً صامتاً.

كان يشاهد نفسه يخرج إليهم يذهبون إلى قاعة التشريح، يدخلون، يخرجون، يذهبون إلى الأعلى، يدخل هو إلى غرفته.

ينتبه إلى حركة في الممر. ثمة جثث تخرج من قاعة التشريح تتجه إلى أقصى الممر لتصعد كرسياً وضع هناك عند النافذة التي لا يدري كيف فتحت، لتقفز من خلاله خارجة إلى الشارع. إذن، ما قاله الطبيب والمساعد ورجال الحرس الوطني صحيح، فثمة جثث هربت من المشرحة.

فكّر مع نفسه بأن في قاعة الثلاجات عشرات الجثث، فهل هربت من المشرحة جميعها؟ وإلى أين تذهب؟ كيف لها أن تتحرك وتهرب وهي ميتة؟ ومن جاءت هذه الصور التي بثها التلفزيون؟ ومن صورها؟ لقد انتبه أن قناة الدولة الرسمية هي التي بثت الصور. تُرى هل جن وأن ما يراه هو من تصوير عقله الممسوس؟ لا، لا بد من التأكد من كل ذلك؟

كان الحارس آدم في حالة توتر شديد. فجأة، نهض مغادراً الغرفة تاركاً الباب مفتوحاً، والتلفزيون مستمر ببث صور الممر وما يجري فيه.

حينما صار في الممر وجد أنه خالٍ من أي حركة. نظر إلى عمق الممر حيث يفترض وجود النافذة المفتوحة التي هربت منها الجثث فرأى أنها

موصدة، ولا كرسي هناك. ما الذي يجري؟
مشى في الممر بخطوات بطيئة وحذرة. راودته فكرة أن يذهب إلى قاعة الثلاجات الأبعد من قاعة التشريح ليتأكد مما يجري هناك، وحينما اقترب من قاعة التشريح تقرفص على الأرض ومشى زاحفاً ببطء إلى أن اجتاز مسافة الباب والنافذة، وما أن عبر حدود القاعة حتى استقام ثانية متجهاً نحو قاعة الثلاجات.
دفع الحارس آدم باب قاعة الثلاجات فهاله ما رأى. كانت جميع الثلاجات بكل طوابقها قد فتحت وغادرت الجثث أماكنها. القاعة فارغة بالكامل. إذن، ما شاهده كان صحيحاً؟ وما قاله رجال الحكومة كان صحيحاً أيضاً؟ ماذا عليه أن يفعل؟ ستقع المسؤولية عليه بلا شك، فهو حارس المشرحة؟
فكّر للحظات بمصير هذه الجثث، فهو يعرف أصحابها، معظمهم رجال من مختلف الأعمار. رجال بلا أسماء، ولا هويات شخصية، فهم مجهولون ولا يعرف أحد عنهم شيئاً، سوى أنهم موتى. لكن أين سيذهبون؟ وكيف يعيشون؟ فكّر ثانية في لاعقلانية هذا الوضع؟ فالموتى لا يأكلون ولا يشربون، وهذا يعني أنهم لا يحتاجون للقوت اليومي إذ يمكنهم العيش هكذا؟ لكن أين سينامون؟ وهل سيبقون عراة؟ معظم ملابسهم في المخزن، أوه، عليه أن يذهب إلى هناك فربما سرقوا ملابسهم أيضاً؟
خرج من قاعة الثلاجات ودفع الباب المقابل لها والذي كتب عليه بخط أسود عريض (المخزن)، فبهت حينما وجده خالياً أيضاً من أية ملابس؟ هذا يعني أن الجثث ارتدت ملابسها وخرجت. لكن كيف حدث ذلك؟ ولماذا؟
فجأة، طرقت خاطرة ذهنه المتوتر، ماذا عن الجثث الجديدة للنساء في قاعة التشريح؟ خرج مسرعاً من المخزن متجهاً إلى قاعة التشريح، وتعجب بأنه عاد لا يخاف الجثث، سوف يواجهها جميعاً، لكنه أصيب بالذهول حينما دفع باب قاعة التشريح ولم يجد أياً من جثث النساء، سوى جثة الصبي الصغير وهي ترقد على السرير النقال؟
خرج من قاعة التشريح مذهولاً، مرعوباً، أين ذهبت هذه الجثث؟ ومتى؟ وكيف؟ وإلى أين؟ ولماذا؟
أحس بأن عليه إخبار الطبيب الخفر ومساعده، فركض في الممر متجهاً إلى الطابق الأرضي، حيث غرفة مساعد الطبيب. تعثرت قدمه عند السلم والتوت. أحس بألم في قدمه اليمنى، وبرغم ذلك صعد السلم، مندفعاً نحو غرفة المساعد، فطرقها بقوة بحيث كان يمكن للطبيب في غرفته بالطابق الأعلى أن يسمع ذلك. لم يفتح له أحد، فشد على مقبض الباب، لكن

فوجئ حينما وجد الباب مفتوحاً، والغرفة فارغة.
لم يفهم ما يجري، ودون أن يتوقف كثيراً، ركض نحو الطابق الأعلى حيث غرفة الطبيب الخفر، لكنه تردد قليلاً، فأين سيكتشف غرفة الطبيب في ذلك الممر المرمري الذي رآه حينما صعد في المرة السابقة؟ وربما سيقابل الرجال الثلاثة الذين جاءوا إليه مع المساعد، لكنهم لم يطرقوا عليه الباب؟ وربما سيواجه عشرات الجثث الهاربة من زنزاناتها في الطابق الأعلى؟
كانت قدمه تؤلمه، لكنه برغم ذلك أسرع بالصعود إلى الطابق الأعلى. حينما وصل إلى هناك وجد أن الطابق كما يراه في كل ليلة، وليس كما رآه في المرة الأخيرة، واستمع لقصة آدم كاشف الليل وآدم الخباز، وحواء المفتي. هؤلاء الذين كانوا في الغرفة يتحدثون. سأل نفسه عن سر هذه التحولات العجيبة في المكان؟
توجه إلى غرفة الطبيب الخفر، ودون أن يطرقها قبض على مقبض الباب فوجده غير مقفل أيضاً، فحركه داخلاً، فلم يجد أحداً أيضاً؟ ما الذي يجري؟ أين الطبيب الخفر ومساعده؟
لا يدري أية رغبة دفينة دفعته للتوجه إلى النافذة والنظر من خلالها إلى الخارج؟ ما رآه أصابه بالذهول.
كانت الجثث تتحرك في الشارع المقابل للمشرحة في الظلمة، حركات بطيئة وميكانيكية، لكنها تبقى حركات لأجساد بشرية. من بعيد رأى الرجال الثلاثة الذين كانوا يقفون أمام البوابة عند المطر، ورأى الطبيب ومساعده، رأى النساء الخمس، وكل الذين كانوا في قاعة الثلاجة، وآخرين لا يدري من أين جاءوا. ربما هؤلاء الذين كانوا في زنازين الطابق الأعلى الذي كان خارج المكان؟ رأى وكأن الحياة عادت إلى بغداد، مدينة تكتظ بالجثث الحية. إذن، لم يبقَ في المشرحة سواه والصبي؟
لم يكن الحارس آدم يعرف ماذا عليه أن يفعل؟ ولم يفهم ما يجري؟ أحس أن كل شيء مشوش في ذهنه؟ خرج من غرفة الطبيب الخفر ببطء شديد بعد أن تأمل الغرفة بنظرة سريعة. خرج نازلاً إلى غرفته.
لم يعد يفكر بشيء، أقصى ما يتمناه هو الوصول إلى غرفته والتمدد على السرير. إنه بحاجة إلى النوم، لم يعد يتحمل التفكير أكثر، ليكن ما يكون، عليه الآن أن ينام، أو على الأقل أن يسترخي من هذا التوتر العنيف.
حين وصل أسفل السلم وبداية الممر وجد أن باب غرفته مفتوح، تذكر أنه تركه مفتوحاً. نظر إلى عمق الممر، فهاله ما رأى.
كان هناك كلب أسود، هائل الحجم كالجاموس، وكان الكلب الأسود ينظر

إليه بعينيه الفسفوريتين نظرة حاقدة، وكأنه يتأهب للانقضاض عليه.
توقف الحارس آدم متجمداً من هول المفاجأة. سأل نفسه بسرعة خاطفة عن سر هذا الكلب، الهائل الحجم، الذي لم يشاهده حتى في الأفلام، من أين جاء؟ وكيف دخل إلى هذا الممر؟
ظل كلاهما ينظر إلى الآخر. كان الحارس آدم يقيس حينها المسافة بينه وبين باب غرفته، وبينه وبين الكلب الأسود المرعب. في الطرف الآخر كان الكلب الأسود ينظر إلى الحارس آدم وكأنه يعرف ما كان يفكر فيه، وهو بدوره كان يقيس المسافة أيضاً بينه وبين الحارس المرعوب.
كان بين الحارس آدم والباب بضع خطوات بينما الكلب الأسود الهائل الحجم يبعد أكثر من ثلاثين متراً عن الباب، فهو في أقصى الطرف الآخر من الممر.
تهيأ الكلب الأسود إلى القفز باتجاه الحارس آدم، بينما تهيأ الحارس آدم بدوره للركض إلى غرفته التي كانت من حسن حظه مفتوحة الباب.
قرر أن يعدّ إلى الثلاثة ثم يركض إلى غرفته، وفعلاً بدأ العد: واحد، اثنان، ثلاثة. ركض بأقصى ما يمكن، قافزاً بشكل سريع جداً.
في اللحظة التي انطلق فيها الحارس آدم راكضاً نحو غرفته، قفز الكلب الأسود قفزة هائلة نحوه، لكنه لم يصل إليه، إذ إن الحارس آدم قد سبقه في الوصول إلى غرفته، فقد قطع الكلب الأسود المسافة بقفزتين، وفي الثالثة تزحلق متجاوزاً الباب واصلاً إلى السلم.
في اللحظة التي دخل فيها الحارس آدم إلى غرفته أغلق الباب خلفه بالمفتاح. كان قد وصل إلى أقصى درجات الرعب، فهو لم يرتعب من الجثث حينما وصلت إلى بابه مثلما ارتعب من هذا الكلب الأسود الهائل الحجم.
فجأة سمع حركة واحتكاك على الباب من الخارج. نظر من البؤبؤ الزجاجي النابت في الباب. وضع عينه على البؤبؤ لكنه سرعان ما ارتد ملتصقاً بالحائط عند الباب. لقد رأى الكلب الأسود متشبثاً، واقفاً، مستنداً بقائمتيه الأماميتين على الباب، وكأنه يعرف أنه يقف خلفها.
بعد دقائق تجرأ الحارس آدم للنظر ثانية من خلال البؤبؤ الزجاجي فرأى الكلب وهو يتراجع برأسه إلى الوراء وكأنه يعرف أن الحارس ينظر إليه ليبدو وجهه له كاملاً، فارتد الحارس آدم خائفاً مرة أخرى. ظل واقفاً عند الباب، لكنه سمع خربشات على الباب بدا منها أن الكلب أنزل قوائمه عن الباب.

لا يدري كيف بدرت منه التفاتة عفوية إلى وسط الغرفة، فرأى أن شاشة التلفزيون كانت تنقل ما يجري في الممر.
كان الممر خالياً سوى من الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس، الذي بدا على الشاشة وهو يبتعد عن باب الغرفة. اقترب الحارس آدم من الشاشة، جلس على الصوفة الجلدية منهاراً، وهو يتابع ما يجري على الشاشة.
انتبه إلى أن الكلب الأسود بدا مهيمناً على الممر، وكأن يمشي وكأنه يعرف الطريق جيداً. وقف عند باب قاعة التشريح، التفت إلى الباب، ثم واصل طريقه إلى أقصى الممر، حيث قاعة الثلاجات. التفت إلى الوراء وكأنه يريد أن يتأكد من أن الحارس آدم لم يخرج من غرفته أو أن الممر خال من أي مخلوق آخر، ثم دخل إلى قاعة الثلاجات.
حاول الحارس آدم أن يسترخي على الصوفة الجلدية، لكنه لم يستطع، كان متوتراً جداً، فقد أثاره وجود الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس. فكّر مع نفسه في وجود هذا الكلب الأسود الهائل الحجم في المشرحة، هل هذا هو جزء من عذابات ما بعد الموت كما يرد في معتقدات بعض الأديان؟ لكن لم يرد في الأديان التي تسمى سماوية إشارة لوجود كلب هائل الحجم؟ فكّر أنه قرأ أن الفراعنة كانوا يؤمنون بوجود كلب اسمه (همهم)، وفي بعض البرديات جاء اسمه (عم ميت) أو (آكل الموتى)، الذي يلتهم قلوب الخطاة بعد وضعها في الميزان وتبيان ثقل خطاياهم، لكن هذا في العالم الآخر وليس في المشرحة؟ هل تحولت المشرحة إلى دار للقيامة ودار للحساب؟ نحن في الأرض ولسنا في العالم الآخر؟ ثم لماذا لم يدخل إلى قاعة التشريح، هناك حيث يرقد الصبي؟ هل حقاً أن الأطفال لا يحاسبون بعد الموت ويذهبون إلى الجنة بدون حساب؟ لماذا إذن هذا الصبي هنا ولا يذهب إلى الجنة مباشرة؟ لكن ربما لأنه بلا ذنوب لذلك لم يقترب الكلب الأسود منه؟
انتبه الحارس آدم إلى أن الممر ظل خالياً من أية حركة لفترة طويلة، لكنه لم ينتبه كيف أنه غطَّ في سبات عميق.

(11)

حراس السجن المظلم

على الرغم من أن الحارس آدم كان غارقاً في لجة نومه العميقة، إلا أن شاشة التلفزيون في غرفته كانت تنقل أحداثاً هائلة تجري في الممر. فجأة صحا على ضجيج في غرفته، انتبه إلى أن الضجيج قادم من جهاز التلفزيون. ألقى نظرة على الشاشة فعرف أنها تبث وقائع تجري في الممر المجاور. جلس على الصوفة خائفاً، متابعاً ما يجري.

ظهر على شاشة التلفزيون مجموعة من الرجال وامرأتين، إحداهما شقراء أنيقة وأخرى محجبة أنيقة، بينهما الطبيب ومساعده، ورجال الحرس الوطني، وثلاثة رجال آخرين بملابس أنيقة، عرف بينهم أعضاء في أعلى سلطة بالبلاد، الذين كثيراً ما يظهرون على شاشات التلفزيون. كانوا يسحلون جثة ناطقة، صاحبها يصرخ مؤكداً بأنه لن يتكلم عنهم شيئاً، فقط ليتركوه يذهب لمحافظته الجنوبية البعيدة.

كان الرجال الثلاثة والمرأتان، الذين بدوا أيضاً، أنهم يحملون تلك الندب عند أعناقهم، وأعلى جباههم، لا يريدون الجثة المقبوض عليها أن تخرج من المشرحة، وكانوا يخاطبون رجال الحرس الوطني بألاّ يسمحوا لها بالخروج، وإذا اقتضى الأمر فيجب تقطيعها إرباً إرباً، لأن لسان صاحبها طويل وهو يسبهم ويشتمهم، ويشتم الحكومة في كل مناسبة، بينما كان صاحب الجثة يقسم لهم بأغلظ الأيمان بأنه لن ينطق بأية كلمة، وأنه لن يخرج من بيته، يتوسل إليهم أن يسمحوا له بالذهاب إلى بيته فقط، فلديه طفل معاق وأم عجوز لا تستطيع أن تخدم ابنه، فزوجته هجرته مع سائق أحدهم، وهو لا يريد سوى أن يذهب ليخدم ابنه وأمه العجوز. كانت الضجة عالية في الممر. المحطة الرسمية للبلاد تنقل وقائع ما يجري في الممر تحت الأرضي في مشرحة بغداد الكبرى.

أحد رجال الحرس الوطني ومساعد الطبيب يمسكان ذراعي الجثة ويسحلانها باتجاه قاعة التشريح. فجأة توقف الجميع وعلى وجوههم ارتباك واضح ودهشة كبيرة، لقد رأوا شيئاً ما أمامهم، بث الرعب في نفوسهم والارتباك على ملامحهم.

كان الارتباك والخوف والدهشة بادية على وجوه الجميع، ويبدو أنهم يعرفون ذلك الذي قابلوه وفاجئهم بوجوده في الممر، لأن دهشتهم لم تكن تشي بأنهم يرونه لأول مرة، وإنما لهول المفاجأة في أن يروه في مثل هذا الموقف الذي هم فيه. المرأتان، الأنيقة الشقراء والمحجبة الأنيقة، لم تتحملا

الموقف فجلستا على الأرض من الرعب وكأنهما تحاولان الاختفاء أو تجنب الموقف.
لم يرَ الحارس آدم ما يجري في الطرف الآخر، ومن يقف هناك، لأن الكاميرا كانت تبث من جهة المساعد والرجال والمرأتين، لكنه سمع صوتاً ما وكأنه من مكان غير الممر، صوتاً وكأنه من جهاز تسجيل مكبر، فاهتز الممر من هول الصوت. لكن هذا الصوت الهائل كان يتضمن سؤالاً:
- ما الذي يجري هنا؟
بدأت شفاه الآخرين وخدودهم بالارتجاف وهم يسعون إلى الجواب. كل منهم كان ينتظر أن يبادر أحد آخر غيره بالجواب. وحينما طال انتظار من يقف في الطرف المقابل للجواب، لكن ثمة أشعة فسفورية صفراء بدأت تتلون متحولة إلى اللون البرتقالي، حتى بادر أحد الرجال الأنيقين الذي كان يرافق المجموعة، والذي بدا أنه الأعلى مقاماً بينهم بالجواب:
- سيدي المحترم، هذا موظف خان الأمانة التي أوكلها الشعب له، عيّناه في موقع جيد في لجنتنا، موقع المقرر، فأخذ يسرّب معلومات اللجنة، ويشتم الحكومة ورجالها الشرفاء. هذا أنا آدم التاجر، وهذا نائبي آدم الشيخ، وهذا الحاج آدم الروحاني وهاتان السيدتان، (التفت مفتشاً عن المرأتين، ففسحوا له المجال لتتبين أنهما جالستان القرفصاء خلفهم، محاولتان التستر عن عيون الكلب الأسود، فأشار إليهما).. هذه حواء الشقراء، أما تلك فحواء المحجبة. أما بقية الأخوة فمن رجال الحرس الوطني، وهذان هما الطبيب الخفر ومساعده. نحن نريد أن يبقى هذا المتهم في المشرحة، ومنعه من الخروج منها لحين انتهاء التحقيق في ملفه.
كان الرجل الجثة ينظر بتوسل إلى الجهة الأخرى غير المنظورة في الشاشة، ويقلب النظر بينه وبين المجموعة، وكأنه ينتظر ما سيقرره.
في غرفته كان الحارس آدم متوتراً، فبرغم أنه كان مرعوباً أول الأمر إلا أنه أخذ يتابع ما يجري في الممر وكأنه يتابع فيلماً أميركياً درامياً مشوقاً، فيلماً من أفلام الرعب والخيال العلمي.
جاء الصوت من مكان ما، هادراً:
- أنت آخر من يتحدث عن الأمانة، بل أنتم جميعاً لا يحق لكم الحديث عن الأمانة، وتعرفون ما أعني؟
ارتبك الرجل الأنيق، وقال بتلعثم وهو يبتلع ريقه:
- نعم، سيدي.
هدر الصوت ثانية، مجلجلاً في الممر، متردداً في كل أرجاء المشرحة:

- أنتم تلوثون الماء الجاري.. وتخربون الأرض المفلوحة.. أنتم أقدام نارية تحرق كل ما تدوسه أو تمر عليه.. أنتم حراس السجن المظلم.. أنتم طاعون أصاب البلاد، قيح أفسد الهواء.. لعنة تجوب البراري.. لا تتحدثوا عن النزاهة..

ازداد ارتباك آدم التاجر أكثر، فقال بتلعثم:

- أنا يا سيدي.

- اخرس.

سادت لحظة من الصمت. بدت المجموعة جامدة من الخوف، ثم هدر الصوت، فارتعشت له أوصال رجل الحرس الوطني ومساعد الطبيب فتركا الجثة:

- وأنت.. يا نقار الخشب.. أيها القنفذ الجبان.. أيها الشمعة السوداء.. لِمَ تخاف هؤلاء التعساء؟

تقدمت الجثة خطوة إلى الأمام وجثت على ركبتيها متوجهة لمن يقف في الجهة المقابلة في الممر، وقالت بتوسل:

- يا لبؤسي، يا لبؤسي لأني ولدتُ في هذا العالم وفي هذه البلاد. ليت رحم أمي كان قد صار لي ضريحاً؟ يوم اغتالني في غرفتي البائسة رجال أرسلهم هؤلاء، (وأشار بيده إلى الرجال الأنيقين والمرأتين الأنيقتين) بمسدس كاتم للصوت، في تلك اللحظة جاءتني أشباح لا تعرف الرحمة، سحبوا روحي التعيسة من جسدي، ثم طووها على هيئة حصان أسود وراحوا يقودونني إلى وديان غريبة.

مررت بخندق عميق يمتلئ بالزواحف، ولكل زاحف سبعة رؤوس، وجسد كل زاحف أشبه بجسد العقرب. كما رأيت في هذا الخندق الدودة العظيمة، الدودة التي في فمها أسنان تشبه الأوتاد الحديدية، أرادوا أن يلقوا بي هناك، لكنهم غيروا رأيهم، ثم جاءوا بي إلى هنا. وهنا في هذه المشرحة شقوا صدري وأخرجوا قلبي. هنا يا سيدي الكلب تُشرّح الجثث وتؤخذ قلوبها.

هنا، بعد أن شقوا صدري وأخذوا قلبي وكبدي، وضعوني على سرير نقال وأدخلوني إلى الثلاجة. لا أدري كيف أيقظتني بقية الجثث وقالت علينا أن نغادر المكان، لنذهب إلى أماكننا وبيوتنا ودوائرنا، وحينما ذهبت إلى مكان عملي، جاء هؤلاء جميعهم، وألقوا القبض عليّ، وهم يريدون أن يمزقوني، يقطعوا لساني، وأطرافي، بحيث لا أستطيع أن أقول شيئاً صادقاً. أنت تعرف يا سيدي أن الموتى لا يكذبون...

جاء الصوت من الجهة الأخرى، قائلاً:
- إنهم يكذبون، حتى وهم موتى. لكن لماذا يريدون أن يفعلوا بك ذلك؟ ما الذي لديك ضدهم؟
تقدمت الجثة إلى الأمام زاحفة على ركبتيها باتجاه الشخصية غير المنظورة على الشاشة، وقال:
- أنا آثم ومذنب وأقر بذلك لأني أطعت هؤلاء. لقد بعت مسرة القلب التي كان الفقر يعكرها، واشتريت الأحزان التي زينتها من الخارج الرفاهية والجاه. لقد عملت مع هؤلاء في موقعهم، كاتباً مقرراً لما يتفقون عليه في اجتماعاتهم، لكنني وخلال عملي معهم رأيت العجب العجاب. هؤلاء يا سيدي لا يريدونني أن أخرج من هنا، بل يريدون تقطيع أوصالي كي لا أكشف ما خفي من أعمالهم، برغم أنه لا شيء مخفياً اليوم في البلاد.
كان الحارس آدم يتابع هذه المحكمة الغريبة. لم يعرف من كان يقف في الجهة المقابلة من الممر؟ فالمشرحة فارغة، وليس هناك سوى الصبي الراقد في قاعة التشريح، والكلب السود الذي دخل إلى قاعة الثلاجات؟
هل يمكن أن يكون هو الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس، يقف كالقاضي، ليحدد مصائر هؤلاء الموجودين في الممر؟ لكن كيف يمكن للكلب أن يتكلم العربية؟ ولماذا لم يظهر على الشاشة أبداً؟ وإذا ما كان الذي قد تحدث معهم هو الكلب، فلماذا هجم عليّ إذن؟ هل يعرفني؟ لماذا كان غاضباً مني؟ ولماذا لم يتحدث معي إذا كان قادراً على الكلام كالبشر؟ ومن هو أصلاً؟ من أين جاء؟ وكيف هو بهذا الحجم الهائل؟ هل أنا خير أم شرير؟ لماذا هجم عليّ؟
لكن من يؤكد أن الكلب هو الذي كان يقف في مواجهة هؤلاء؟ نعم، ربما كان هو، لأن هؤلاء لا يخافون إلا ممن هو أقوى منهم؟ والكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس هو ربما مثل الكلب آكل قلوب الموتى في مصر الفرعونية؟ لا.. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، لكن من تُرى كان يقف في مواجهة هؤلاء دون أن أراه، أو تنقله القناة الرسمية للحكومة؟
تجرأ آدم التاجر، الذي كان يتزعم المجموعة، فقال من مكانه:
- هل رأيت يا سيدي كيف يتحدث هذا التافه ويتطاول علينا وعلى الحكومة؟ كيف يتجاوز على السادة الأشراف، يتهمنا بأننا نريد تقطيع أوصاله بينما كل ما نريده نحن أن يبقى في المشرحة ولا يتسكع في الطرقات يسب هذا ويشتم ذاك، يكشف أسرار الدولة.
كانت الجثة التي تجثو أمام الشخص الذي لم يكن ظاهراً على الشاشة،

خائفة أن يقتنع بكلام آدم التاجر، لكنه تجرأ على التقدم أكثر حينما رأى تلون الشعاع الفسفوري من الأصفر وتحوله إلى اللون البرتقالي فالأحمر، وهذا دلالة على الغضب مما قاله آدم التاجر. التفتت الجثة إلى الجماعة الواقفة ثم إلى الشخص الخفي، وقالت:

- هؤلاء يريدون تمزيقي، بالرغم من أن كل واحد منهم ينتمي لجهة، وكل منهم لديه فرقة لاغتيال المعادين له، وأنهم يغتالون الآخرين لأبسط الأسباب، وهؤلاء الذين تراهم أمامك يتّحدون ضدي، كل منهم قد قتل من أنصار الآخر عدداً.

هذا السيد المدعو آدم الشيخ، لا يدافع عن أحد إلا وقد استلم من صاحبه مبلغاً معتبراً، ولا يهاجم أحداً إلا وقد استلم من آخرين مبلغاً من أعدائه للهجوم عليه، أما السيد آدم الروحاني فليس لديه من الروحانية إلا الاسم، فهو جشع جداً، علاقاته جيدة مع جميع دول الجوار المتصارعة في ما بينها، يحج إليهم كل سنة، لا يترك دولة منها دون زيارة وتبريك.

أنا سمعت زميليه يتحدثان عنه بأنه يقبض من الجميع، وهو بالمقابل قرأت تقريراً كتبه ضدهما، لصالح جهة عليا في البلاد، يتهمهما بأنهما يقبضان من دول أخرى. أنا أعرف الكثير عنهم، وحتى عن هاتين السيدتين. أعرف أشياء مخجلة. خفت منهم فهم لا يرحمون أحداً. طلبت النقل أو الموافقة على استقالتي، رفضوا جميعهم، بل أخذوا يقنعونني بالبقاء، ليس حباً طبعاً، وإنما كي لا أذهب بعيداً عن أعينهم. وحينما بقيت مصراً على رأيي، أرسلوا من قام باغتيالي. هذه حكايتي معهم.

كان الحارس آدم يتابع هذه المناظرة العجيبة بين الجثة المقبوض عليها والبقية والشخص الخفي المجهول. وليتأكد مما يجري على الشاشة قام فنظر من البؤبؤ الزجاجي وسط الباب فرأى بعض الوجوه، لكن لم يرَ الشخص الذي يقف قبالتهم، فقد كان خارج حدود البصر. رجع للجلوس على الصوفة الجلدية ليتابع المشهد بكامله.

كان الرجال والمرأتان والبقية في حالة غضب شديد. لقد كشفت الجثة الهاربة عن الكثير من وجوههم الخفية وأسقطت أقنعتهم المحترمة أمام هذه الشخصية المهيبة والمرعبة، فرفع آدم التاجر هاتفه الجوال وتحدث بهمس مع جهة ما على الجهة الأخرى المجهولة، ثم تقدم قليلاً وقال للشخص المقابل له:

- أرجوك ألاّ تتدخل في شؤون الدولة والحكم، فهذا الشخص مطلوب للقضاء، وقد أصدرنا المذكرات بإلقاء القبض عليه وحجزه في المشرحة.

ويبدو أن الشخص الخفي الذي يقف في الجهة الأخرى قد غضب من كلام آدم التاجر، فجاء صوت ما مزمجراً:

- أتهددني أيها القزم.. ماذا إذا لم أسمح لكم بتقطيعه؟ ماذا ستفعل؟

احتقن وجه آدم التاجر، ثم قال:

- عندها تعذرنا لأننا سنأخذه بالقوة. ونحن كما ترى جاهزون لأخذه.

في هذه الأثناء سحب رجال الحرس الوطني أسلحتهم، واخرج الرجال الأنيقون مسدساتهم، بل حتى المرأتان سحبتا مسدسيهما من حقيبتيهما الجلديتين، ومن نظراتهم بدا أنهم فرحوا لما يجري في أقصى الممر.

إذ قال آدم التاجر، بزهو:

- ابتعد عن طريقنا، ودعنا نكمل عملنا، وها هم رحال القوات الخاصة تحاصرك من الخلف.

لم يكمل آدم التاجر جملته، ولم يعرف الحارس آدم ما كان يجرى، لكنه رأى كيف انبطح الواقفون على الأرض، ثم بدأ إطلاق النار الكثيف بالأسلحة الثقيلة من الخلف.

امتلأ الممر بالدخان، وانهار السلم من أثر إطلاقة من سلاح متطور. الشاشة كانت بيضاء، لم يتبين آدم الحارس أي شيء، وشيئاً فشيئاً تكشف المشهد. لم يكن هناك أي أثر لمن كان في الممر. كانت الجثة الناطقة قد تمزقت بالكامل في الهجوم. فجأة انقطع البث التلفزيوني وصارت الشاشة زرقاء بالكامل.

لم يصدق آدم الحارس ما شاهده. قام ثانية ونظر من خلال البؤبؤ الزجاجي. كان الممر خالياً، ولم يكن هناك وجود للرجال أو المرأتين أو الجثة الممزقة. كان الصمت سائداً في الممر.

رجع آدم الحارس إلى الصوفة الجلدية. كان في حالة ذهول وارتباك، وسأل نفسه عن معنى كل ما جرى؟

أحس برغبة في أن يتأكد من كل شيء. قام فنظر أول الأمر مرة أخرى من خلال البؤبؤ الزجاجي، وحينما تأكد من أن الممر خال من أي شيء، مدّ يده قابضاً على المقبض، وبهدوء شديد وحذر فتح باب الغرفة قليلاً.

مدّ رأسه من فتحة الباب دون أن يخرج بكامل جثته منها. كان الممر خالياً. خرج من الغرفة. وقف عند الباب. نظر إلى الدرج فوجده قد تهدم في جوانب منه، إذن فإن ما جرى كان حقيقة، لكن أين الجثة الممزقة؟ وأين الآثار الأخرى؟ وأين آثار الرصاص؟ أين الرصاصات الفارغة؟

اقترب من السلم أكثر، فرأى بقايا أغلفة فارغة لطلقات أسلحة من أحجام

مختلفة متناثرة على درجات السلم، إذن فقد حدث تبادل لإطلاق النار فعلاً، لكن من ضد من؟

نظر إلى الجهة الأخرى، حيث قاعة التشريح وقاعة الثلاجات والنافذة، فرأى أن النافذة مفتوحة على مصراعيها، والكرسي تحتها، للصعود إليها أو الدخول منها.

راودته رغبة في أن يذهب إلى قاعة التشريح ليرى الصبي الصغير، لكن فجأة شله الرعب. جمد في مكانه، إذ رأى الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس يخرج من قاعة الثلاجات. إذاً، فلم يكن الكلب الأسود من كان يقف في مواجهة المجموعة، وإنما كان شخصاً خفياً، فها هو الكلب الأسود أمامه.

وقف الكلب هناك ينظر إليه. بقي للحظات دون أن يخفض نظره عنه، وبينما أحس هو وكأنه مشلول في مكانه. فجأة التفت الكلب الأسود إلى جهة النافذة، وبشكل لا ينسجم مع المنطق انكمش حجمه، ثم قفز على الكرسي أمام النافذة، ومنه قفز خارجاً إلى شوارع بغداد وليلها المظلم.

شعر الحارس آدم بتعب مفاجئ يهبط عليه. لم يستطع أن يتحرك، ولم يستطع أن يفكر بشيء. أحس برغبة قوية في أن يعود إلى غرفته، وبرغبة في النوم الذي لا يأتيه ولا يمنحه له أحد، فقد كانت هذه ليلة حافلة بالأحداث الغريبة والأسرار المغلقة.

دخل غرفته، وألقى بنفسه منهكاً على الصوفة. راوده شعور بالضياع. أحس أنه في متاهة غريبة، وأن هذه ليست بمشرحة فحسب، وإنما هي مشرحة - متاهة.

حاول أن يجد تفسيراً لكل ما مرّ به، فلم يستطع. أحس بالظلام يكبس على فكره وعينيه، وأنه ينحدر إلى لجة النوم العميقة، لكن لا، ثمة طرق على الباب، لا.. أنه يحلم ربما.. لا.. ثمة طرق على الباب.

(12)

صباح الجثث

استيقظ الحارس آدم، فزعاً، على أثر طرقات خفيفة على الباب. كاد ينام، فقد ألقى بنفسه على الصوفة دون أن يطفئ الضوء، لكن هذه الطرقات على الباب طردت حتى لحظات الاسترخاء التي شعر بها قبل قليل.

ألقى نظرة على الساعة المنضدية التي كانت تشير إلى الخامسة فجراً. وبالرغم من أنه استيقظ على طرقات الباب إلا أنه لم يكن متأكداً بأن هناك من يطرق الباب، لكنه تأكد منه حينما سمع بشكل واضح طرقاً خفيفاً على الباب.

نهض بحذر شديد ونظر من البؤبؤ الزجاجي فرأى الصبي الصغير يقف عند الباب. ارتد إلى الوراء، فكّر أن الصبي وحده، وهو لا يخيفه إلى هذه الدرجة، لكنه بالرغم من ذلك فتح الباب بحذر شديد فرأى الصبي يقف أمامه وعلى وجهه علامات خوف جامد. نظر إلى آدم الحارس بما يشبه التوسل قائلاً:

- أنا خائف.. لقد تركوني وحدي وخرجوا.. حتى جدتي تركتني.

بقي آدم صامتاً، مبحلقاً في الصبي للحظات، ولا يدري الحارس آدم كيف جاءته فكرة دعوته إلى الداخل، فبدون أي كلام أو سؤال فتح الباب للصبي فدخل وهو يتحرك حركة الموتى البطيئة الجامدة.

أغلق الحارس آدم الباب خلفه ثم جلس على الصوفة. ظل الصبي الصغير واقفاً، وبإشارة من الحارس آدم جلس على الطرف الآخر من الصوفة.

ظلا صامتين لفترة. أخذ الحارس آدم يتأمله. كان تحت قميصه ما يشي بأن شيئاً ما تحطم. لا يعرف الحارس آدم كيف جرى ما جرى، فقد سأله:

- ما اسمك؟

فأجاب الصبي دون أن يرفع رأسه إليه:

- اسمي آدم.

فسأل آدم مندهشاً:

- آدم؟ أنت أيضاً اسمك آدم؟
- نعم.. اسمي آدم الصغير، وأبي اسمه آدم أيضاً.
- أنا أيضاً اسمي آدم.
- أعرف.. اسمك آدم الحارس.
- ومن أين تعرف أن اسمي آدم؟
- النساء اللواتي كن في القاعة ذكرن ذلك.

- ومن أين يعرفن ذلك؟
- لا أعرف.

صمت الحارس آدم للحظات، حدق إلى الأرض قليلاً، ثم رفع رأسه وسأل الصبي:

- هل رأيت شيئاً غير اعتيادي في الممر؟
- لا.. مثل ماذا؟
- مثلاً.. كلب أسود هائل الحجم مثل جاموس؟
- كلب أسود هائل الحجم مثل جاموس؟ كيف مثل جاموس؟
- هكذا ببساطة... هائل الحجم مثل جاموس.
- أين؟
- هنا في الممر، لكن لا تخف، فقد تغير حجمه، وصار مثل قطة صغيرة ثم قفز من النافذة وخرج..
- أنت تمزح..؟
- لا أنا لا أمزح.. أنا رأيت ذلك.

أحس أن الصبي مسّه الخوف مما قال، فأراد أن يخفف عنه، لأنه بالتأكيد لم يرَ شيئاً، لذا سأله:

- هل العجوز جدتك؟
- نعم.. إنها جدتي حواء.
- حواء؟
- نعم حواء.
- ولماذا تركتك وحدك؟

صمت الصبي آدم الصغير قليلاً ثم قال:

- ذهبت لتنتقم.
- تنتقم؟
- نعم تنتقم.
- تنتقم ممن؟ ولماذا؟
- تنتقم من الذين قتلوا أبي وأمي.
- ومن الذين قتلوا أباك وأمك؟
- جماعة في منطقتنا قتلوا أبي، وكانت أمي معه..
- أية جماعة؟
- لا أحفظ الأسماء جيداً. جماعة ما قتلوهما. جدتي، منذ ذلك الوقت تنتقم لهما.

- كيف تنتقم لهم.. وهي امرأة عجوز؟
- بمساعدة عمي الأصغر آدم.
- آدم؟
- نعم، أيضاً اسمه آدم.
- كيف يساعدها؟
- عمي تعّرف على جماعة أخرى في منطقتنا أيضاً، وتعاون معهم من أجل الانتقام لأبي وأمي..
- في أي منطقة تعيشون؟
- نحن من حي العامل.
- وكيف يتعاون عمك معهم وهم من جماعة أخرى؟
- جدتي ذهبت إليهم وقالت لهم هي لا يعنيها من أي جماعة هم، فهي تريد الانتقام لأبي وأمي، وهي تعرف أن الذين قتلوهما من الجماعات المعادية لهم.. واتفقت معهم..
- وكيف تعرف أنت كل هذه الأمور؟
- كانت تتحدث مع عمي في البيت، وكانت أحياناً تطلب من عمي بمصادقة بعضهم ودعوته إلى البيت، ثم تقوم هي بإخبار الجماعة الأخرى ليقتلوهم، وأحياناً كانت ترسلني لإخبار أحدهم من خلال نقل جملة ما أقولها له.
- ألم ينتبه إليهما أحد؟
- لا.. جدتي لا تقتل بيدها وإنما تخبر الجماعة الأخرى كي تقوم بقتلهم.
- وكيف جاءوا بكم إلى هنا؟
- كانت تريد تقديم معاملة لدى مؤسسة الشهداء.. وكنت أريد الذهاب للمدرسة لكنها طلبت مني الذهاب معها. وكنا هناك حينما سمعنا انفجاراً.. ثم وجدنا أنفسنا هنا.
- ولماذا تركتك هنا وذهبت وحدها؟
- لا أدري؟ ربما ذهبت تبحث عن عمي آدم، فهو منذ أسبوع قد اختفى. وسمعنا أنه قتل بكاتم صوت. جدتي ذهبت تبحث عنه في المستشفيات الأخرى. ربما كان عمي هنا، هل هناك غيرنا هنا؟
- طبعاً هنا كان العشرات من الجثث غيركم، وكان بينهم من جاءوا بهم في الأسبوع الماضي من المصابين بطلقات من مسدسات كاتمة للصوت. ربما كان عمك بينهم.. لكنهم جميعاً خرجوا.. تركوا قاعات الثلاجات وخرجوا إلى الشارع.. لم يبقَ غيرك هنا يا آدم.

- وأنت ؟ لماذا لم تخرج؟
- أنا؟
- نعم أنت؟
- أنا.. أنا حارس المشرحة.. كيف أخرج وأترك المشرحة؟
- ولماذا تحرس المشرحة؟
- لماذا أحرس المشرحة؟ لا أدري لماذا أحرسها؟ عملي هو أن أحرس المشرحة، أن أحرس الجثث.
- ولكنك جثة أيضاً.
- لا.. أنا لست مثلكم.
- أأنت حي أم ميت مثلنا؟
- أنا؟
- نعم.. أنت.
- أنا حي.. أنا أعمل هنا حارساً لمشرحة بغداد الكبرى.
- لكني سمعت النساء في قاعة التشريح يتحدثن عنك بأنك كنت حارس المشرحة سابقاً، وجاء بعض الذين أرادوا سرقة بعض الجثث فوقفت بوجههم، فأطلقوا عليك طلقة في جبينك، فمتَّ. ولآن لا أهل لديك بقيت حارساً في المشرحة، مستمراً في عملك لكنك جثة، أنت ميت مثلنا..

أحس الحارس آدم بالرعب من كلام آدم الصغير الذي كان يقوله ببراءة وصدق وعفوية، فأحس بقشعريرة الخوف تسري في أوصاله.

نهض الحارس آدم مفتشاً في الغرفة عن مرآته التي لم ينظر إلى نفسه فيها منذ ستة أشهر تقريباً، ليتأكد مما يقوله الصبي آدم الصغير. وأخذ يهمهم مع نفسه:

- أين هي.. أين هي؟
- عن أي شيء تفتش؟
- عن المرآة الصغيرة التي كانت عندي لأتأكد من كلامك..
- إنها هناك بالقرب من الكتب.

انتهى الحارس آدم إلى أن المرآة ملقاة على مجموعة من الكتب، قام إلى زاوية الغرفة حيث الكتب. أخذ المرآة، فوجدها قد تهشمت بالكامل من مركزها، بحيث لا يمكن النظر فيها، وبرغم ذلك نظر إلى نفسه فيها، فلم يجد انعكاساً لصورته فيها، تعجب، وتمتم قائلاً:

- المرآة مهشمة.

فقال الصبي ببراءة:

- يمكنك أن تتحسس أثر الرصاصة في جبينك.. إنها واضحة..
وبشكل لاإرادي مدّ الحارس آدم كفه إلى جبينه فتلمس ندبة جفت الدماء حولها في وسط جبينه. لم يشعر إلا وهو يسقط جالساً على الصوفة. كان مرعوباً، بينما ظل الصبي آدم الصغير هادئاً وهو ينظر إليه.
انتبه الصبي آدم الصغير إلى أن الحارس آدم لم يكن يدرك أنه ميت مثلهم، لذلك كان يخافهم.
ظل الحارس آدم صامتاً. غرق في تأملاته الداخلية، وكأن الصبي آدم الصغير غير موجود في الغرفة. كان يسأل نفسه: كيف أتأكد من كلام الصبي بأني ميت مثله؟ كيف عرف الآخرون بأني ميت بينما أنا لا أتذكر شيئاً مما رواه الصبي؟ لكن ما معنى هذه الندبة العميقة التي تشبه أثر رصاصة في وسط جبيني؟ من أين جاءت؟ أنا لا أتذكر شيئاً؟ كيف لي التأكد من أني حي أو أني ميت؟ إذا كنت ميتاً فكيف أمارس حياتي الطبيعية هنا في المشرحة؟ كيف أقوم بواجباتي اليومية وأتعامل مع الموظفين؟ مع الأطباء والمساعدين؟
هل هذا يعني أن الجميع موتى؟ لقد انتبهت إلى رجال الحرس الوطني حينما جاءوا يسألون عن الجثث الهاربة، لقد كانت تحت حناجرهم أثر خياطة ما بعد التشريح، لقد كانوا هم أيضاً من الجثث الهاربة التي ارتدت ملابس عسكرية، لكن الطبيب الخفر ومساعده أيضاً كانا يحملان الإشارات نفسها على عنقيهما، بل إن الطبيب كان له أثر واضح على وجهه أيضاً، بالتحديد عند حافة شعر الرأس، وهو أثر فتح الجمجمة. لكن ماذا عن البقية؟ كيف يمارسون حياتهم؟ أية حياة إذا كانوا هم أمواتاً؟ لقد رأيتهم جميعاً من النافذة وهم يعبرون الجسر.
فجأة، التفت الحارس آدم إلى الصبي آدم وسأله:
- هل أنت متأكد من أنني ميت؟
- لا أدري، أنا سمعتهم يقولون عنك ذلك..
- كيف نتأكد من ذلك؟
- لا أعرف كيف تتأكد من ذلك؟
- تعالَ.. الساعة الآن في حدود الخامسة والنصف.. لنذهب إلى الشارع مثل البقية ونتأكد هناك..
- كيف ستتأكد؟
- لا أدري، لكن لنذهب.
نهض الحارس آدم من مكانه وكذلك نهض الصبي آدم. خرجا من الغرفة.

أغلق الحارس آدم الباب، واتجه مع الصبي آدم نحو السلم.
صعدا إلى الطابق الأرضي. لم يكن أحد هناك. توجها إلى الباب الخارجي. أخرج الحارس آدم مفتاحاً من جيبه وفتح الباب الرئيس، ثم فتح الباب وخرجا إلى الشارع.
كان الفجر قد بدأت خيوطه البيض تلون فضاء بغداد، وتكشف عن المشرحة شيئاً فشيئاً.
عند منعطف الشارع انتبه الحارس آدم إلى حركة بعض السابلة. كانت حركة بطيئة، ونظراتهم تائهة، وبلهاء، وكأنها تنظر في الفراغ، وكانت آثار التشريح وندوبه واضحة على وجوههم أو أجسادهم. مرت سيارة بقربهما، توقفت السيارة لسبب ما. نظر إلى السائق فلمح آثار خياطة تشريح الجمجمة.
عند نقطة التفتيش توقفا. سلّم على الجندي الحارس الذي كان هناك، فلاحظ أثر طلقة على عنقه. هل يا ترى جميع الناس هنا ليسوا إلا جثث هاربة؟
بالرغم من أن الحارس آدم كان يمشي إلى جانب الصبي آدم، إلا أنه كان غارقاً في تأملاته. كان يسأل نفسه: لماذا تهرب الجثث؟ أتخاف من رحلة الموت؟ أتخاف مما يأتي بعد الدفن؟ وكيف تعيش هذه الجثث؟ هل تتحرك بالروح أو بدونها؟ وكيف له أن يتأكد من أنه حي أو ميت؟ هل هو حي أو ميت؟
كانت تباشير الفجر قد بدأت ملامحها في السماء، ومع انبلاج الخيط الأبيض، رأى الحارس آدم حركة الناس عابرة الجسر، وبدأت الحياة الميتة تدب في شوارع بغداد. كانت الشوارع مكتظة بالجثث الهاربة. كان هو يعرفها، بل يعرف الكثير منها، متأكداً من موتها، كان متأكداً من كل شيء يحيطه، لكنه لم يكن متأكداً من شيء واحد، هل هو حي أو ميت؟
أخذ بيد الصبي، قائلاً له:
- عليّ أن أعرف هل أنا ميت أم حي يا آدم، لكن كيف لي أن أعرف ذلك؟
نظر الصبي إليه نظرة مليئة بالطيبة والحزن والشفقة، وقال للحارس آدم وكأنه يخاطب طفلاً:
- لا أعرف كيف ستعرف ذلك، وأنا لا أستطيع أن أجيبك هل أنت حي أو ميت؟
- من يستطيع أن يجيبني إذاً؟

- لا أحد.
- لا بد أن يأتي أحد ليقول لي الحقيقة.
- لا أحد يأتي.

برلين

كانون الثاني 2012